مع الإمام الطبري

وكتابه

(تاريخ الرسل والملوك)

ومقدمة لقراءة التاريخ

جمع وترتيب

عيسى بن سليمان الفيفي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

١٤٤٠هـ

جميع الحقوق محفوظة

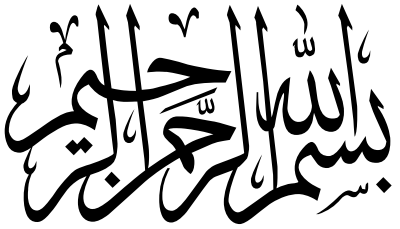

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل من جعل الكتاب جزءاً من حياته، وأنار بالعلم طريقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأكرم، المؤيد بكتابه المبين، المتمسك بحبله المتين وعلى أله وصحبه أجمعين . . وبعد:

قال الله تعالى: (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾). [1]

وقال رسول الله ﷺ: ﴿ استهن على حفظك بيمينك ﴾. [2]

وعن عمرو بن أبي سَبرة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ﴿ قيدوا العلم بالكتاب ﴾

وقد وردت عن مجموعة من الصحابة هذه المقولة . [3]

وقال الشاعر: [4]

العلم صيدٌ والكتابة قيده * * * قيّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة * * * وتتركها بين الخلائق طالقة

فقد قمت بجمع هذه المعلومات المهمة حول الإمام الطبري رحمه الله وكتابه (تاريخ الرسل والملوك) لشهرته العظيمة، لنجد البعض غير مقتنع بهذا الكتاب وما فيه، ولكن القارئ البصير سيفيد نفسه وغيره، دون الاهتمام بما ينشر من قيل وقال . . والله أعلم.

محبكم

عيسى بن سليمان الفيفي

Eisa850@hotmail.com

Eisa850 تويتر

---

(١)- سورة طه ، الآية رقم : (١١٤) .

(٢)- تقيد العلم (ص ٦٤) ، والحديث أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٦٦) .

(٣)- تقييد العلم .

(٤)- الإمام الشافعي رحمه الله .

مقدمة

في قراءة التاريخ

قراءة التاريخ [1]

"التاريخ" كلمة تستخدم كثيراً على ألسنة الناس جميعاً، علماء وعامة، طلاباً وأساتذة، وفنانين، ولكل من هذه الفئات وغيرها استخدام لكلمة "التاريخ" يختلف عن استخدام الآخرين.

فكلمة "تاريخ" قد تعني تحديد الموقع الزمني: تاريخ الميلاد، أو الوفاة، وقد تعني نظاماً دراسياً مثل الحديث عن مواد التاريخ في مرحلة الدراسة الثانوية أو الجامعية، ومثل الحديث عن أقسام التاريخ وأساتذة التاريخ.

وقد تعنى مجمل التجربة الإنسانية في هذا الكوكب عند قولنا "تاريخ البشرية" أو التاريخ الإنساني، وربما يكون المقصود بها ماضي الجماعة الإنسانية والمجرى العام لتطور الإنسان، كذلك فإن الكلمة قد تعني أحياناً دراسة وتحليل ماضي المجرى العام لتطور البشرية.

وقد تكون الكلمة دالة على لحظات مهمة وفارقة في حياة أحد المجتمعات، وهو المعنى الذي يستخدمه السياسيون كثيراً لدرجة امتهانه عندما يصفون مناسبة ما، أو حدثاً ما، بأنه حدث "تاريخي".

وهناك معان حديثة تفرعت من المعاني القديمة للكلمة تدل على "تاريخ التاريخ" نفسه، أي دراسة التطورات التي مرت بها الدراسات التاريخية منذ عصر الأسطورة إلى عصر النظام الأكاديمي الذي تتم فيه دراسة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والوقائع والأحداث العسكرية والسياسية فترة زمنية بعينها، وفي مكان محدد من المعالم، وهو المعنى الدال على الدراسة العلمية للتاريخ.

---

(١)- الدكتور قاسم عبده قاسم نشرت في يوليو ٢٣ ، ٢٠١٤ عن طريق دار عين- قسم تاريخ دكتور قاسم عبده قاسم فكر كتابة تاريخية.

هذه المعاني الكثيرة المتوالدة من كلمة ‘‘تاريخ’’ تدلنا على حقيقة هذا النوع من الدراسات الإنسانية ومدى مرونة المصطلح المستمدة من طبيعة العلم التاريخي نفسه.

وربما يكون هذا هو السبب في القول بأن المؤرخين غير واثقين تماماً من قدرتهم على تحديد ماهية ‘‘التاريخ’’ بشكل دقيق.

ويعنى هذا ببساطة أن التاريخ مركب ومتغير ومحير تماماً مثل الناس الذين يسجل حياتهم وأفعالهم، فالتاريخ، مثل الفن والفلسفة والأدب، طريقة للنظر إلى التجربة الإنسانية- سواء كانت النظرة إلى الجماعة وحياتها التي تشكل مجمل التاريخ، أو إلى الأفراد الذين يشكلون جزئيات هذا التاريخ، فالتاريخ، بوصفه علماً ونظاماً دراسياً، يتناول الإنسان في حياته الاجتماعية عبر العصور.

ويمثل الإنسان والزمان الجناحين المتغيرين في الظاهرة التاريخية، وهو ما يعنى أن مادة التاريخ وموضوعه شديدة التركيب والتعقيد من ناحية، ودائمة التغير من ناحية أخرى. وهذا، في ظني، سبب تعدد المعاني والمدلولات التي تحملها ‘‘التاريخ’’.

اعرف نفسك:

ومن جهة أخرى، انعكست هذه الحقيقة على ‘‘قراءة التاريخ’’، وتفصيل ذلك أن الحدث التاريخي يقع مرة واحدة ويسجل إعادة إنتاجه بطبيعة الحال.

ومن البديهي أن أحداً لا يمكن أن يؤلف تاريخاً، وإنما يقوم المؤرخون بـ ‘‘قراءة التاريخ’’ وليس كتابته كما يبدو للوهلة الأولى.

ولا بد أن نفهم، بداية، أن ‘‘قراءة التاريخ’’ استجابة لرغبة الإنسان الخالدة في أن يعرف عن نفسه وعن الآخر.

ولهذا السبب ، فإن هذه ‘‘القراءة’’ دراسة إنسانية في الأساس: إذ إنها تؤكد على أهمية الناس وخياراتهم الفردية، والقيم التي يتمسكون بها، وزوايا الرؤية التي نظروا بها إلى أنفسهم وإلى

العالم من حولهم، وهذا الاهتمام الواضح بالإنسانية يمثل الحلقة الحيوية التي تربط ما بين التاريخ والدراسات الإنسانية الأخرى اتلي يشاركها أدواتها وأهدافها.

ولكن الفرق بين التاريخ وغيره من الدراسات الإنسانية يتمثل في أن التاريخ يتعامل مع الإنسان في رحلته عبر الزمان أساساً، ولذا يطرح طريقة النظر إلى التجربة الإنسانية لا تقدمها الدراسات الأخرى، فالتاريخ هو وحده الذي يضيف المنظور الزمني لدراسة الإنسان في الماضي بحيث يكشف عن مدى عمق التجربة الإنسانية في الماضي وحتمية تغير هذه التجربة من آن لآخر.

ولأن التاريخ يتعامل مع فيض من الأحداث والوقائع والشخصيات والظواهر، فإنه يكشف بلا مواربة عن حقيقة بسيطة مؤداها أن لا شيء يبقى على حاله، كما يوضح أن التجربة الإنسانية حركية ومستمرة، كما يجعلنا نعرف أنه إذا كان ما يحدث في العالم الآن يكتسي أهمية ما، فإن الناس الذين عاشوا قبلنا كانت لهم مشاكلهم، وعرفوا كيف يتعايشون معها حتى تنتهي واستمروا في الحياة بعدها.

وهي حقيقة مؤداها أن حياة الجماعة الإنسانية تخضع للتغير المستمر، وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة هي أن كل شيء خاضع للتغير.

وأهمية ''قراءة التاريخ في هذا السياق أنها تساعد ''القارئ''- أي المؤرخ- على وضع الحاضر في مكانه الصحيح.

ذلك أن التاريخ يهتم بالأسباب، ومن ثم فإنه يوسع من مدى إدراكنا للعملية التاريخية، وإذ ''قرأناه'' بوعي، نظرنا إلى المشكلات التي تعكر صفو الحاضر برؤية أكثر تنظيماً، لأن معرفة كيفية عمل المجتمع في الماضي- من خلال قراءة التاريخ- قد تفتح عيوننا على الإمكانات والبدائل الكامنة في الحاضر، وليس معنى هذا أن التاريخ يمكن أن يجعلنا نتنبأ بالمستقبل

بشكل ساذج وبسيط مثل قراءة الطالع، وبالتالي لا يمكن أن يرشد الناس عن الكيفية التي يجب أن يتصرفوا بها في حاضرهم، ولكنه قد يساعدهم على أن يتجنبوا تكرار أخطائهم.

ويمكن لمجتمع اليوم أن يأخذ من ماضيه شيئاً ربما يفيد في توجيهه وإرشاده لأن التاريخ يحمل في داخله نوعاً من الإنذار المبكر لمن يعرفون كيف ينصتون إليه أو يحسنون قراءته.

وقراءة التاريخ، بهذا المعنى، تتم عدة مرات ومن زوايا عديدة، فبينما تهتم الدراسات الإنسانية كافة بأن تحفظ التجربة الإنسانية، وتنقلها وتفسرها في الحاضر، يلتزم التاريخ أساساً بأن يستدعي الماضي، ثم يعيد بناءه بمنهجه الاسترادادي، كما يعيد قراءته (أو تفسيره) بحيث يخلق صلة بينه وبين الحاضر ويترجمه إلى صيغة يستطيع الجيل الحاضر أن يستخدمها لصالحه.

ولذلك اختلفت قراءة التاريخ من عصر إلى عصر آخر بحثاً عن تلك الصيغة المناسبة لصالح الجماعة في حاضرها ومستقبلها.

وسبب ذلك راجع في جوهره إلى حقيقة التغير الدائم الذي تخضع له الجماعة الإنسانية وفي حياتها كل تغير جديد في الجماعة الإنسانية وفي حياتها الاجتماعية يحمل رؤية جديدة لنفسها ولماضيها، فتعيد "قراءة" هذا الماضي بحثاً عن عناصر كامنة تربط هذا الماضي بحاضر الجماعة.

قراءات أسطورية:

ففي الزمن القديم، كانت الغاية من " قراءة التاريخ" تبرير الظواهر الاجتماعية والطبيعية التي لا يعرف الجيل "الحاضر" لها تفسيراً، ولهذا اتخذت القراءة سمة أسطورية لكي تبرر للناس حياتهم الحاضرة، ولكي تبرر خضوعهم للنظام السياسي ومنظومة القيم والعادات والأخلاق السائدة في مجتمعهم.

ثم جاءت القراءة الدينية للماضي محاولة للتفسير. وللتلقين الأخلاقي والديني من خلال استخدام الماضي استخداماً عمليا وتعليمياً، وهو ما يفسر لنا وجود المادة التاريخية في الكتب المقدسة للديانات الإنسانية الكبرى.

ومن ناحية أخرى، كانت ‘‘القراءة الدينية’’ للتاريخ محاولة لصباغة رؤية الجماعة الدينية لذاتها والآخر.

فالقراءة اليهودية ركزت على فكرة الاختيار والأرض الموعودة، على حين ركزت القراءة المسيحية على فكرة الخلاص، أما القراءة الإسلامية، فقد ركزت على أخوة بني الإنسان من ناحية، وفكرة خلافة الإنسان في الكون لإعماره من ناحية أخرى.

وهناك ‘‘قراءات ’’ أخرى للتاريخ تجلت في ‘‘تاريخ التاريخ ‘‘، منها القراءة العنصرية التي بررت التحركات الاستعمارية (رسالة الرجال الأبيض) وبررت دعاوى التفوق العرقي وقد ازدهرت في ظل النظم النازية والفاشية، ومنها القراءة الاشتراكية التي بررت القبضة الشيوعية على التجمعات التي خضعت لهذا النمط من الحكم.

وفي ظل التطورات الديمقراطية، ظهرت قراءات أخرى للتاريخ لعل أبرزها يتمثل في القراءة الشعبية التي تبرز دور الناس العاديين في صنع التاريخ، وقد أفرز هذا الواقع حقائق جديدة على مستوى الدراسات التاريخية، إذ إن ‘‘قراءة التاريخ ’’ قد اختلفت من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع غيره، وليس معنى هذا أن ‘‘التاريخ’’ بوقائعه وأحداثه يخضع لإعادة صياغة دائمة لأن ذلك يعد نوعاً من ‘‘تأليف التاريخ’’ الذي هو في التحليل الأخير ‘‘تزييف للتاريخ‘‘، وإنما يعني هذا أن كل عصر، وكل جيل في المجتمع، يبحث عن العناصر التاريخية التي تفيد في توضيح الحاضر واستشراق آفاق المستقبل.

التحليل التاريخي:

ويتعامل المؤرخون، في قراءتهم للماضي الإنساني بطبيعة الحال، مع الحقائق في ماض حقيقي، وهي حقائق ترتبط بالواقع ارتباطاً راسخاً.

ويتأكد المؤرخون من طبيعتها من خلال التواريخ التي تدعمها الوثائق، ولكنهم مع هذا، لا يتعاملون مع الحقائق فقط، وإنما يتعاملون أيضاً مع المشاعر والأحاسيس والدوافع والأسباب التي أفرزت تلك الحقائق، ويحاول المؤرخون الفاهمون وضع تلك الحقائق التاريخية في سياق الحياة الاجتماعية التي أفرزتها وتفهم معناها وإيقاعها.

وهذا ما يسميه المؤرخون "التحليل التاريخي"، أي المقابلة والاستنباط ومحاولة فهم مالا تقوله سطور المصادر التاريخية التقليدية.

فالحقائق لا تتحدث بنفسها، وإنما يمكن أن تنطق بشيء ما في حالة واحدة لا تتوافر إلا عندما يتم ترتيب هذه الحقائق التاريخية المجردة ليست تاريخاً بحد ذاتها، كما أن المجندين الجدد الذين لم يتلقوا تدريباتهم لا ومن هنا، تأتي أهمية "قراءة التاريخ" ذلك أن التاريخ يمتاز عن الفلسفة والفن والأدب (على الرغم من اشتراكه معهم في كونه طريقة للنظر إلى التجربة الإنسانية) بأنه يختار من التجربة الإنسانية ويصدر أحكامه.

فهو يقلب التجربة التاريخية الإنسانية مرات ومرات بحيث يجد، في كل مرة، علاقات جديدة في تجربة كان الجيل الأسبق قد استبعدها أو أسقطها، وقد ينحى جانباً بعض العناصر التي يرى أنها فقدت جدواها، ولكن جيلاً جديداً يأتي في المستقبل ربما يرى- من خلال البحث التاريخي- معنى جديداً فيما أهمله الجيل الحالي، فالأجيال تعيد قراءة التاريخ مرات ومرات بحيث توظف الحقائق التاريخية، والعلاقات التي تربط فيما بين هذه الحقائق، لصالحها و لخدمة أغراضها، وما قد يسقطه جيل سابق قد يجد فيه جيل لاحق بعض المعنى والفائدة فيعيد قراءة التاريخ على أساسه.

وواجب المؤرخ أن يصل الماضي بالحاضر بطريقة إبداعية خلاقة، ومن ثم فإن هدف المؤرخ لا يمكن أن يكون مجرد عرض حقائق التجربة الإنسانية وفهمها فحسب، وإنما بعثها بإعطائها القيم والمثل الحافزة والبناءة والمرتبطة بعصره، وهذا هو السبب في أن التاريخ لا يكتب فقط وإنما تعاد قراءته مرات ومرات عبر رحلة الإنسان التي لم تتم، بعد، عبر الزمان.

وغالباً ما يقال إن كل عصر يكتب تاريخه الخاص، لأن كل عصر سوف يحاول تقديم تقييمه الخاص لما هو "مهم" في ماضيه وسوف يميل إلى رؤية الماضي في ضوء اهتماماته وانحيازاته.

هذه حقيقة يمكن تلخيصها في العبارة المدهشة "التاريخ حوار بين الحاضر والماضي"، وفي تصوري أن معنى هذا أن التاريخ يتأثر بالمادة والظروف الأخلاقية السائدة في المجتمع وفي العصر الذي تتم قراءته فيه، وقراءة التاريخ هنا ليست شذوذاً عن كل الأنشطة الفكرية التي لابد أن تتأثر بالبيئة والظروف والعصر.

فكل نشاط فكري أو علمي لابد أن تكون له وظيفة ثقافية- اجتماعية في خدمة الجماعة الإنسانية في عصرها، أي أن هذه الوظيفة الثقافية- الاجتماعية تتغير من جيل إلى جيل آخر، ومن عصر إلى عصر غيره، ومن هنا تأتي اختلافات "قراءة التاريخ" من عصر إلى عصر آخر.

التراكم المعرفي:

وإذا كانت دراسة التاريخ عبارة عن إعادة قراءة وإعادة تفسير مستمرة، فهي أيضاً تطور تراكمي بمعنى أنها تضيف مزيداً إلى رصيدنا المعرفي باستمرار، إذ إننا حين نرى أسلافنا قد جابهتهم مشكلات عصرهم لسبب ما، ربما يمكننا تجنب الأسباب المشابهة التي تؤدي إلى خلق مشكلات مشابهة، وهذا هو بالضبط هدف قراءة التاريخ الذي لم يتحقق على نحو فعال حتى الآن، ولآن التاريخ علم ينتمي إلى الماضي من حيث موضوعه، ولكنه مرتبط بالحاضر والمستقبل من حيث هدفه ووظيفته الاجتماعية، فإن إعادة قراءة التاريخ في كل عصر بحثاً عن العناصر التي تفسر الحاضر وترشد إلى المستقبل تبدو "حقيقة تاريخية ثابتة"

بحد ذاتها، ولهذا السبب اختلفت وظيفة التاريخ في خدمة الجماعة الإنسانية من عصر إلى آخر.

هذه النظرة النفعية للتاريخ قد تكون محل اعتراض من جانب المؤرخين المثالين الذين يبحثون في التاريخ عن العظة والعبرة، على الرغم من أن التاريخ نفسه يعلمنا أن العظة والعبرة الوحيدة في التاريخ هي أن أحداً لا يتعظ من ''قراءة التاريخ''.

ولهذا فإن الهدف ينبغي أن يكون موجهاً نحو فهو العناصر المكونة للحاضر من خلال تحليل الماضي وتفسيره، وتركيز الضوء على العناصر الحافزة في هذا الماضي، فعندما نقرأ التاريخ، نبدأ في إدراك أن الحياة متغيرة، وأن لكل جزء فيها مكوناته الذاتية الخاصة، ومهما تكن جاذبية التشابهات بين الماضي والحاضر، فإننا سرعان ما نتعلم أن الماضي لا يمكن أن يتكرر، وقراءة التاريخ لا يمكن أن يكون هدفها تكرار الماضي، وإنما تفسير الماضي، في صيغة تربطه بالحاضر في ذلك الحوار الذي أشرنا إليه في السطور السابقة.

وهذا مرة أخرى هو السبب في تعدد '' قراءات'' التاريخ، ففي كل مرة تتم فيها قراءة التاريخ لا يكون الهدف ''تكرار'' الماضي، وإنما يكون الهدف البحث عن رؤية جديدة لهذا الماضي تناسب الحاضر.

خلاصة القول، إن التاريخ ''يحدث'' والمؤرخون ''يقرؤونه'' في كل مرة يحاولون فيها ''كتابته''، وقد مرت هذه القراءات بتطورات كثيرة عبر التاريخ الطويل لتاريخ الفكر التاريخي نفسه.

ومن ثم تغيرت مهمة المؤرخ بالضرورة. ففي الزمن القديم، كانت غاية ''قراءة التاريخ'' حكاية ما حدث وتسجيله، وكانت مهمة المؤرخ أن يحكي ''ماذا'' حدث، ولذلك ظهرت ''قراءة'' المؤرخين القدامى للتاريخ نوعاً من التدوين والتسجيل، ولكنه كان في الحقيقة ''قراءة'' تعكس وجهة نظر المؤرخ من ناحية، وقراءة عصره للتاريخ من ناحية أخرى.

ولأن وسائل حفظ المعلومات وتدوينها تطورت بشكل مذهل، فإن مهمة المؤرخ المسجل والحافظ والراوي لم تعد لها ضرورة بتغير وظيفة المعرفة التاريخية في المجتمع الإنساني. فلم تعد مهمة المؤرخ أن يحكي "ماذا" حدث. أو يسجل، وإنما صارت مهمته أن يفسر لنا "لماذا" حدث ما حدث،. وهو، يعني في التحليل الأخير أن "قراءة التاريخ" صارت تهدف يبدأ بكلمة "لماذا"، ولم تعد تقع بالحكاية والتسجيل الذي يجيب عن السؤال الذي يبدأ بكلمة "ماذا".

كيف يُقرأ التاريخ؟[1]

القراءة في كتب التاريخ تعود على الفرد والمجتمع بأحسن العوائد وأجمل الآثار، لكن كيف نقرؤها قراءة تمكننا من تحقيق هذه الفائدة؟ من المعلوم أنَّ التاريخ هو تراث الأمة وكنزها، وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة، وهو ديوانها الذي تحتفظ فيه بذاكرتها، وهو مُغترَف العِبَر والعِظات لأحداثها، وهو بيانٌ لسِيرة عظمائها، وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضرٍ أفضل ومستقبلٍ أَجَلّ، وهو دراسة أحوال الماضين من الأمم والشعوب الأخرى، وهو وعاء الخبرة البشرية.

وهذه وريقات في كيفية قراءة الشباب للتاريخ، موجِزًا ما استطعتُ إلى الإيجاز سبيلًا، وسأقتصر على تاريخ الأمة الإسلامية، أما تاريخ الأمم الأخرى فله حديث آخر؛ إذ له قواعد ومصادر ومراجع تقترب حينًا وتبتعد أخرى من تاريخ الأمة الإسلامية، والله أعلم.

كيفية قراءة التاريخ:

كيف يُقْرَأ التاريخ؟ هناك كيفيات عديدة للقراءة، لكن قبل ذِكْرها وبيانها ينبغي التذكير بأنَّ القراءة لابد أن تكون بِنِيَّة الاستفادة والتغيير؛ فهذا من أهمِّ ما يُقرأ التاريخُ من أجله؛ إذِ الأمة الإسلامية اليومَ تتطلع إلى الخروج مِن النَّفَق المظلم الذي وَضَعت نفسها فيه منذ قرابة ثلاثة قرون، ولا مَخْرج لها - بعد التوكل على الله سبحانه- سوى المراجعة الدقيقة لتاريخها، واستخراج ما فيه من عِبَر وعظات صالحة لدفع عملية التغيير قُدُمًا إلى الأمام.

وتاريخ الإسلام مليء بالفوائد الجليلة من عِبَر وعظات، وردت في ثنايا أحداثه وفي سِيَر الشخصيات العظيمة، فإذا قرأ المرء في كتب التاريخ فلتكن نِيَّته الاستفادة من هذه الكنوز، وتقويم حياته بها؛ فمَنْ قرأ تاريخ بني أمية وما فيه من مزايا ونقائص، وما فيه من كرٍّ وفرٍّ،

---

(١)- محمد بن موسى الشريف دكتوراه في علوم القرآن الكريم ويعمل قائد طائرة في الخطوط الجوية السعودية بتاريخ ٤ / ٤ / ٢٠١٤م رابط المادة: http://iswy.co/e11ssn .

ومَدٍّ وجزر؛ قراءة واعية مركزة، فسيستخرج عبرًا وعِظات، تُفيده في تقويم مسيرته، وكذلك سائر الدول من عباسية ومملوكية وعثمانية... إلخ.

ومَن قرأ جهاد الدولة الزِّنكية والأيوبية للصليبيين؛ فكأنما يُطالع أخبار زماننا هذا.

ومَن قرأ تفاصيل أعمال بني عثمان في البلقان وسائر دول أوروبا الشرقية؛ فسيجد فيها مِنَ الأحداث المشابهة بأحداث زماننا قَدْرًا وافرًا.

وهكذا لو قرأ قارئٌ سِيَر الرجال العظماء، الذين امتلأت بأعمالهم بطونُ الكتب؛ فسيتأثر بها كثيرًا، فَهُمْ ما بين عابدٍ وزاهدٍ وفارسٍ وعالمٍ وغني شاكر، وفقير صابر، في جملةٍ من الأعمال المسطورة والأقوال المنقولة التي يهذِّب بها قارئ التاريخ نفسَه، ويزكِّي بها عمله، ويحسِّن بها مَنْطِقَه.

لذلك فإن القراءة في تلك الكتب تعود على الفرد والمجتمع بأحسن العوائد وأجمل الآثار، فمَن قرأ التاريخ هذه القراءة استفاد تلك الاستفادة.

وأوجز كيفيات قراءة التاريخ في التالي:

١ - القراءة الشاملة:

إن النظرة الجزئية لأحداث التاريخ تُنتج مواقف إزاء تلك الأحداث لا تتفق مع الواقع تمامًا، وتكون ظالمةً لأشخاص ووقائع؛ فمَن نظر إلى الدولة العباسية مِن منظور قسوة النَّشأة وتتبُّع الخصوم؛ سيحكم عليها حكمًا جائرًا.

ومَن نظر إلى دولة بني عثمان في ضوء الوقائع العسكرية فقط؛ فسيحكم عليها حكمًا غير دقيق، وهي أنها دولة أفلحت في الجوانب العسكرية فقط، وأخفقت في سائر الجوانب الأخرى.

ومَن نظر إلى دول آل البيت في ضوء منجزاتها دون النظر إلى عقيدة القائمين عليها -زيدية، أو إمامية، أو إسماعيلية باطنية-؛ فسيخطئ في الحكم عليها، وسيرى أنها دول لها فضل وأثر في بابي الحضارة والثقافة، وسيَعْمَى عن خطورة تلك الدول في جوانب أخرى...وهكذا.

٢- عدم تجميل التاريخ:

يُحب كثيرٌ من قارئي التاريخ والباحثين فيه أنْ يُجمِّلوا التاريخ الإسلامي، وهذا لا يصح؛ إذ التاريخ فيه ما يَجْمُل ذِكْره وفيه ما يسوء ذِكْره، وهذه سُنَّة الله في خَلْقِه، وهكذا هو التاريخ منذ فجر البشرية. وهناك مؤرخون يُجَمِّلون التاريخ بذِكْر الحسنات فقط وإغفال السيئات، وصنيعهم هذا خطأ منهجي واضحٌ، ومما يفعلونه:

١. عدم ذِكْر ما يسوء من الوقائع وسِيَر الأشخاص، وإغفال كل ذلك تمامًا.

٢. ذِكْر ما يسوء مختصرًا بدون توسُّع وانتزاع للعِبَر والعِظات؛ مما يجعل القارئ في حيرةٍ من أمره، ولا يغنيه ما يقرؤه، ولا يقضي حاجته للمعرفة.

٣. ذِكْر ما يسوء مع انتحال الأعذار الكثيرة، التي تُذْهِب بأهمية الحَدَث، وتجرِّئ الباحثين على مزيدٍ من الاعتذارات السَّمِجة.

هذا وقد كان في الأقدمين هذا الصنيع -أي: تجميل التاريخ-، وقد رأيتُه في كتاب الإمام أبي بكر ابن العربي "العواصم من القواصم"، خاصةً عندما تكلَّم على تاريخ بني أمية.

أما المُحْدَثون فبعضهم كتب كتابةً عجيبةً لا تُقْبَل بحالٍ؛ فمن ذلك الكتاب الذي صنَّفه أحدُهم بعنوان: "الحجاج بن يوسف المفترى عليه"، وهذا دفاعٌ أعمى عن رجل ظالم وَلَغَ في الدماء وُلُوغًا بلغ مبلغ التواتر، وكان جبارًا عَسُوفًا، يأخذ الناس بأدنى شيء وأقله، بل في بعض الأحيان بدون سببٍ، فمثل هذا دفاعٌ يُبْغضه الله ويُبْغضه المؤمنون.

وهناك مَن بَالَغَ في الدفاع عن بني أمية في بعض سَقَطاتِهم وتجاوزاتهم، نعم؛ إنَّ في بني أمية مزايا ونقائص، فدَفْعُ النقائص عنهم عملٌ باطلٌ، كما أنَّ غَمْطَهم حسناتِهم فعلٌ محرَّمٌ في شَرْعنا.

٣- عدم تقبيح التاريخ:

هناك اتجاهٌ عند بعض الكُتَّاب بأنَّ التاريخ الإسلامي كله شر وفِتَن، ولم يَسْلَم منه إلا مدة محدودة، زمن الصِّدِّيق والفاروق رضي الله عنهما، أما ما عدا ذلك فليس فيه إلا الفتن والمشكلات، وهذا غلوٌّ واضح وتزويرٌ فاضح؛ إذ التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشريٌّ فيه الخير والشر، وفيه مُدد الهدوء وحوادث الفتن، بل هناك مُدَد مضيئة في التاريخ الإسلامي، أَزْعُم أنها هي الأطول والأكثر امتدادًا في التاريخ.

وللأسف إنَّ حامل لواء هذه الفرية -غالبًا- هم المتحرِّرون (الليبراليون) واللادينيون (العلمانيون)؛ لحاجةٍ في نفس يعقوب، وهي أنه إذا لم يستطع الصدر الأول أنْ يعيشوا في أمنٍ واطمئنان وهدوء تحت راية الشريعة؛ فلن يستطيع ذلك مَن يجيء مِن بعدهم، ومرادهم أنْ يُثْبِتوا هذا، وأمرًا آخر هو أنَّ الشريعة نفسها لا يمكن تطبيقها، وإنْ طُبِّقت فلنْ تجلب الرخاء والأمن.

ولابد عند ذِكْر تاريخنا مِن ذِكر تواريخ الأمم الأخرى؛ مقارَنًا بتاريخنا؛ لنعرف أنَّ تاريخنا أفضل من تواريخ جميع الأمم، بل ليس بينه وبينها أفعل تفضيل.

٤- القراءة المركزة أولًا:

يَهاب أكثرُ قُرَّاء التاريخ مِن دخول المبسوطات الضخمة "الموسوعات" التي أُلِّفت فيه كـ"البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير، و"الكامل" لابن الأثير، و"تاريخ الرسل والأمم والملوك" لابن جرير الطبري رحمهم الله تعالى، وذلك لأمرين:

١. ضخامة المادة وطولها؛ مما يصيب القارئ بالمَلَل.

٢. كثرة الاستطرادات التي تخرج بالقارئ عن النَّسَق العام للموضوع، بحيث ينتهي إلى تشتُّت وخلط؛ فإنَّ مِن عادة المؤرخين القدامى أنْ يُخلِّلوا سرد الحَدَث قصائد شعرية أو تراجم أو حَدَثًا تاريخيًّا آخر، وقد يعجز غير الخبير بمناهج تلك الكتب أنْ يتابع موضوعه الذي يريده.

ولعلاج هذا الأمر فيحسُن بالقارئ أنْ يقرأ كتابًا على الطريقة العلمية الحديثة التي تلمُّ بالموضوع بإيجاز نسبيٍّ وترتيب منهجي دون استطراد أو تطويل، وذلك نحو كتاب "التاريخ الإسلامي" لمحمود شاكر.

٥- فهم الفرق بين مناهج المؤرخين القدامى والمُحْدَثين:

هناك فروق مهمة في طرائق كتابة التاريخ بين المؤرخين القدامى والمُحْدَثين؛ ولابد مِن فَهْم هذه الفروق للاستفادة المُثْلى من قراءة التاريخ، ومن أهم هذه الفروق هي:

أ- **الأسلوب:**

المؤرخون القدامى يكتبون المادة التاريخية ويخلطونها بعاطفتهم وآهاتهم الحزينة أو عبارات الإعجاب والإشادة، وهذا منتشر جدًّا في كتاباتهم، بينما المؤرخون المُحْدَثون لا يكتبون بهذه الطريقة؛ حرصًا منهم على اتباع المنهج العلمي الخالي من العواطف المصاحبة للمادة المسرودة، لكن -في ظني- أن أي مؤرخ في الدنيا لا يمكن له أن يتخلى عن عاطفته تمامًا وهو يكتب، وهذا الذي يطلق عليه أحيانًا فلسفة المؤرخ للتاريخ، فهذه لا سلطان لأحد عليها، فهي نابعة من عقيدة المؤرخ وبيئته وأحوال أمته؛ فمهما ادَّعى مؤرخ عدم التحيُّز لهذه الثلاثة فهو يخادع نفسه، لكن يمكن أنْ يقال على وجه الإجمال: إنَّ أسلوب المُحْدَثين فيه جفاف ويُبس، وأسلوب القدامى فيه عاطفة ولين وجمال.

وليتضح هذا إليكم هذا النص الذي قدّم به المؤرخ ابن الأثير في كتابه "الكامل" لأحداث غزو التتار للعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري:

"لقد بقيتُ عدة سنين معرِضًا عن ذِكْر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذِكْرها، فأنا أُقدِّم إليه رِجلًا وأُؤخِّر أخرى؛ فمَن الذي يسهل عليه أنْ يكتب نعيَّ الإسلام والمسلمين؟! ومَن الذي يهون عليه ذِكْر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، و يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا. إلا أني حثَّني جماعةٌ من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقِّف، ثم رأيتُ أن ترْك ذلك لا يُجْدِي نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذِكْر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مُذْ خلق اللهُ آدمَ إلى الآن لم يُبْتَلوا بمثلها؛ لكان صادقًا؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومِن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بُختنَصَّر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خَرَّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس! وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى مَن قُتِلوا!! فإنَّ أهل مدينة واحدة ممن قُتلوا أكثر من بني إسرائيل.

ولعل الخَلْق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أنْ ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على مَن اتبعه ويُهْلك مَن خالفه، وهؤلاء لم يُبْقُوا على أحدٍ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح؛ فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارَى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفةٌ منهم إلى خراسان، فيفرغون منها مُلْكًا وتخريبًا وقتلًا ونهبًا، ثم يتجاوزونها إلى الري وهَمَذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينجُ إلا الشريد النادر في أقلّ من سنةٍ، هذا ما لم يُسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربندشروان، فملكوا مدنه، ولم يَسْلَم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز ومَنْ في ذلك الصُّقْع من الأمم المختلفة، فأَوْسعوهم قتلًا ونهبًا وتخريبًا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عددًا، فقتلوا كل مَن وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغِياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها. فَعَلُوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضى طائفةٌ أخرى غير هذه الطائفة إلى غَزْنَة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماعَ مثلُه؛ فإنَّ الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا، إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد مَلَكُوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلًا، وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة؛ في نحو سنة، ولم يَبِتْ أحدٌ من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف، يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى مِيرة ومَدَد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها؛ فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلًا لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأما ديانتهم؛ فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرِّمون شيئًا؛ فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحًا، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يَعْرِف أباه.

ولقد بُلِيَ الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب، لم يُبْتَلَ بها أحدٌ من الأمم، منها: هؤلاء التتر -قبحهم الله-، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل مَن سمع بها، وسَتَرَاها مشروحةً متصلةً إنْ شاء الله تعالى، ومنها: خروج الفرنج -لعنهم الله- من المغرب

إلى الشام وقَصْدهم ديار مصر، ومُلْكهم ثَغْر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام غيرها على أنْ يملكوها لولا لطف الله تعالى".

انتهى هذا النقل الجامع بين العاطفة الجليلة وسرد الحادثة بإيجاز، فهو مثير لأشجان القارئ مع حصول الفائدة المتوخاة.

وهذا المنهج في الكتابة -الجامع بين العاطفة الجليلة وتوخي الصدق والعدل-؛ لا يُملّ القارئ مهما طالت به القراءة، بل إنه يترك في نفس القارئ مشاعر قوية، تهزه وتدفعه إلى التغيير من سلوكه وطرائق تعامله مع المجتمع، بل ربما تدفع به إلى المشاركة في مجتمعه مشاركةً نافعةً.

ب- **السرد:**

المؤرخون القدامى إذا سردوا المادة التاريخية المراد الحديث عنها؛ فإنهم غالبًا ما يخلطونها بغيرها، وذلك نحو التراجم -وهي سِيَر حياة الأشخاص، وهذا كثير في كتبهم-، والأبيات الشعرية الكثيرة، والاستطرادات التي يخرجون بها عن موضوعهم الذي يسردونه إلى موضوع آخر، ثم يعودون من قريب أو بعيد إلى موضوعهم الذي بدؤوا به، وهذا مُرهِق لقُرّاء التاريخ في عصرنا.

بينما يُحمد للمُحْدَثين أنهم -لمراعاتهم المنهج العلمي الحديث- لا يقعون في هذا الخلط والتشتيت، وتجد كتبهم التاريخية حسنة السرد، وقوية التركيز على ما يريدون إيراده.

جـ- النقد:

إن النقد لما يورده المؤرخ أمر في غاية الأهمية؛ لأنه بالنقد يطمئن قارئ التاريخ لصحة المادة التي يقرؤها، وترتاح نفسه لمتابعة الاطلاع، وعكس هذا صحيح؛ إذ القارئ للكتاب الخالي من النقد، والذي تكثر فيه الروايات الضعيفة أو الأساطير الموضوعة؛ سيعزف عنه وتَمَلُّه نفسه.

هذا وإن أكثر المؤرخين المُحْدَثين يراعون مسألة النقد هذه، ولا يوردون الأساطير والمرويات شديدة الضعف، التي تَورَّط فيها بعض ضعاف قدامى المؤرخين، لكنهم قد يبالغون، فيستبعدون الوقائع الممكنة، ويَرُدُّون الأحداث التي يرون أنها لا توافق ما يعتقدونه ويذهبون إليه.

أما المؤرخون القدامى؛ فكثير منهم لا ينقد الأخبار التي يوردها، ويعوِّض ذلك ما يُعرف بالتحقيق العلمي الجيد الحديث للكُتُب الذي يُنتظر منه نقد الأخبار والآثار نقدًا يعوِّض تقصير المؤرخ في نَقْدها.

هذا وإن أعظم المؤرخين القدامى نقدًا -في ظني- هو الإمام الذهبي، الذي تتوافر المادة النَّقدية في كُتُبه التاريخية خاصةً كتاب "سير أعلام النبلاء"، ثم يأتي بعده الإمام ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية".

وليس النقد فقط هو المراد، إنما المراد هو النقد القائم على أسس شرعية صحيحة، وهذا لا يَقْوَى عليه إلا مؤرخٌ له حظٌّ وافر من العلوم الشرعية.

وقد كان أكثر المؤرخين القدامى علماء شرعيين؛ فلذلك كانت كتاباتهم موثَّقة ومعتدلة إلى حد كبير، فالإمام الطبري صاحب "تاريخ الأمم والرسل والملوك" كان إمامًا مجتهدًا عارفًا بالفقه والحديث والتفسير واللغة، بل كان إمامًا في كل ذلك، والإمام الذهبي صاحب الكتب التاريخية الكثيرة، والإمام ابن كثير صاحب "البداية والنهاية"؛ كانا متضلعين من علوم الشريعة واللغة، وابن خَلِّكان صاحب "وفيات الأعيان" كان قاضيًا، والصفدي صاحب "الوافي بالوفيات" كان عالمًا بالشرع واللغة، وكذلك الإمام ابن حجر العسقلاني وكان قد صنَّف عدة كتب تاريخية، والإمام السخاوي كذلك، والإمام السيوطي لا يَخْفَى كم ألّف من كتب تاريخية كثيرة، والإمام يعقوب بن سفيان الفَسَويّ صاحب "المعرفة والتاريخ"...وهكذا.

أما المؤرخون المُحْدَثون فلا أعلم أن أحدًا منهم عالم شرعي معتبر معروف، وبعضهم كان عالمًا باللغة والأدب؛ مثل الأستاذ محمود محمد شاكر المصري.

ولذلك كان لزامًا على مَن يريد التصدي لنقد الحوادث التاريخية أنْ يحوز قَدْرًا جيدًا من الثقافة الشرعية، يستطيع به أن يميز الصالح من الطالح، ويُحْسِن به الانتقاء والاختيار.

والحد الأدنى أنْ يكون عارفًا لطرائق تمييز الأخبار الصحيحة من السقيمة بموازين أهل الحديث، وأن يكون عارفًا للحلال والحرام على وجه الإجمال وليس التفصيل.

٦- البعد عن المزالق التاريخية:

في التاريخ العديد من المزالق التي ينبغي عدم التركيز عليها، وتُستثنى من الفقرة الثانية المذكورة آنفًا، وعلى رأس ذلك الفتن التي وقعت بين الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، فقد كان السلف يتجنَّبون الخوض فيها، ويقولون: "هي فتنة جَنّب الله أيدينا منها، فنكفّ ألسنتنا عنها"، وكانوا يوصون في الكتب التي يكتبونها لبيان العقيدة الصحيحة بقولهم فيها: "ونكف ألسنتنا عما شَجَرَ بين أصحاب رسول الله"؛ فأخبار الفتن هذه ينبغي الإعراض عنها تمامًا.

وكذلك يكفُّ طالب التاريخ عما وقع من بعض أصحاب رسول الله من أمور مرجوحة، فيُعرِض عنها، ولا يتوسع في عَرْضها أو ذِكْرها؛ فالصحابة كلهم عدولٌ، لكن لا تعني العدالة عدم الوقوع في الخطأ، وأخطاؤهم قليلة مغمورة في بحر حسناتهم رضي الله عنهم، والأجمل بطالبِ العلم أنْ يبتعد تمامًا عن هذا الموضوع المثير لحساسيات، هو في غنًى عنها.

وكذلك يكفُّ عن ذِكْر بعض ما ورد في ثنايا كتب التاريخ من مفاسد خُلُقية وسلوكية؛ مثل: الزنا واللواط وشرب الخمر، ومثل هذا يكثر في كتب معينة؛ مثل: "الوافي بالوفيات" للصفدي، ومثل "يتيمة الدهر" للثعالبي، ومثل "خلاصة الأثر في أهل القرن الحادي عشر"

للمُحِبِّي، إلى آخر هذه الكتب التي تَورَّط مؤلفوها في إيراد مثل هذا الذي يُفْسِد الأخلاق ويُضِرّ بالقِيَم.

٧- الاطلاع على كتب التاريخ الحديث:

وهذا هو البحر المتلاطم الخِضَمّ، والمنهل الأكبر الأعظم، وهو الذي ينبغي أنْ يتريث المرء طويلًا قبل الخوض فيه والوقوف على دقائقه وتفصيلاته؛ وذلك لتشعبه وكثرة أحداثه كثرةً هائلةً.

ويمكن اعتبار الخط الزمني الفاصل بين التاريخ الحديث والتاريخ الوسيط هو الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١١هـ/ آخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلادي ١٧٩٩-١٨٠١م، فمنذ ذلك التاريخ مرَّ على العالم الإسلامي أحداث ضخمة وكثيرة جدًّا؛ ففي القرنين الفائتين وقع الاحتلال لأكثر بلاد الإسلام فيما يُعرَف خطأ بـ"الاستعمار"، وهو استخرابٌ وليس استعمارًا، وكذلك سقطت الخلافة، وتكوَّنت كل الجماعات الإسلامية، ونشأت المذاهب العقدية الضارة الجاهلية؛ مثل: الشيوعية والقومية واليسارية والاشتراكية والوجودية والبَعْثية وغيرها.

ونشأت الدول الإسلامية بحدودها المعروفة اليوم حتى بلغت قرابة الستين، وحُكِم في أكثرها بغير ما أنزل الله في سابقةٍ تاريخيةٍ ليس لها نظير في ديار الإسلام، وبرز رجال عظماء ذَادُوا عن حِمَى الدين، وفي الوقت نفسه برز رجالٌ كان لهم أسوأ الأثر على الإسلام، وقامت حربان عالميتان هلك فيهما أكثر من خمسين مليونًا...إلخ.

ولابد أن يعرف المريد للتخصُّص في التاريخ الحقائق التالية حول العصر الحديث:

١. ليس هناك كتاب تاريخ واحد جامع اشتمل على التاريخ الحديث كله، بل إنَّ أكثر أحداث التاريخ الحديث مفرقة في عدة كتب.

٢. هناك أحداث تاريخية كثيرة لم تُدَوَّن إلى الآن.

٣. هناك أحداث تاريخية كثيرة دُوِّنت خطأ؛ جهلًا أو نفاقًا ومداهنة أو مداراةً.

٤. هناك أحداث تفرَّد بكتابتها المستشرقون -تقريبًا-، أو أنهم أتلفوا كل كتابة سوى كتاباتهم؛ ومن أقرب الأمثلة على ذلك التاريخ المفصَّل لإندونيسيا؛ فقد احتلها الهولنديون ثلاثة قرون تقريبًا، فطمسوا التاريخ، ونفوا أبطالهم ورموزهم إلى جنوب إفريقيا، وقتلوا آخرين، فلم يبقَ من التاريخ الطويل لتلك البلاد سوى ما كتبه هؤلاء المستشرقون -وهم غير مؤتمنين في الجملة- ونُتَف قليلة كتبها أهل البلاد بلغتهم الأصلية وبحروفها الغريبة التي لم تَعُد يكتب بها اليوم، لا تروي ظمأ المتعطشين لمعرفة تواريخ تلك البلدان على التفصيل. وقِسْ على ذلك ما كتبه الفرنسيون عن بلدان إفريقيا السوداء، وما كتبه الروس عن القوقاز وتركستان الغربية، وما كتبه الصينيون عن تركستان الشرقية...إلخ.

لذلك كله كان استيعاب أحداث العصر الحديث أمرًا أقرب إلى العُسْر منه إلى اليسر، وفي بعض المواضيع يقترب من كونه مستحيلًا، لكن هناك بعض الكتابات المقرِّبة للتاريخ الحديث؛ من أهمها:

١. كتابات الأستاذ محمود شاكر ياسين عن دول الإسلام الحديثة، وهي سلسلة موجزة جيدة، وله كتاب مهم في باب آخر من أبواب التاريخ الحديث، يوجز فيه كثيرًا من الأحداث والوقائع، وهو "الثقافة التاريخية".

٢. كتاب "حاضر العالم الإسلامي" تأليف لوثروب ستودارد، مع الحواشي النافعة جدًّا للأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

٣. كتابات الأستاذ أحمد شلبي عن التاريخ الحديث، وهي قليلة لكنها نافعة.

٤. كتب الأستاذ أنور الجندي، وفيها كثرة وتنوع، وليُقرأ كتاب "معالم تاريخ الإسلام المعاصر" على وجه الخصوص.

٥. كتاب الأستاذ يوسف القرضاوي: "الحلول المستوردة وكيف جَنَت على أمتنا".

٦. بعض كتابات الأستاذ عماد الدين خليل، وتمتاز بالتحليل العميق واختيار الكليات.

٧. بعض كتب الأستاذ علي الصلابي، خاصة كتابه عن السنوسية.

٨- إحسان التعامل مع تاريخ آخر الزمان:

وهذه قضية مهمة جدًّا؛ قد زلّت بها أقدام، وضلّت فيها أفهام، وقصرت فيها أَلْسِنة وطالت أخرى!! وذلك نحو ظهور المهدي وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام وغير ذلك من أحداث وعلامات آخر الزمان واقتراب الساعة، وإنما قلتُ هذا لما تَرَكتْه هذه الأحداث في نفوس كثيرين من آثار مدمرة، أوجزها في التالي:

١. **الاتّكال على هذه الأخبار وترك العمل**: التعلق بهذه الأخبار ونحوها تعلُّقًا يفضي إلى ترك العمل والجد والاجتهاد، بدعوى ترك ذلك للمهدي إذا ظهر!! وهذا مخالف لنَهْج النبيِّ: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها». (صحيح الأدب المفرد للبخاري [٣٧١]).

٢. **إهمالها بالكلية**: وهذا خطأ ومنافٍ لمنهج النبيِّ الذي حذَّر مرارًا من الدجّال، وأَمَر الأمة بالتحذير منه، وقد قصّ علينا جملةً من أخبار آخر الزمان، بل قد جاء جملةٌ منها في القرآن العظيم؛ فالإعراض عنها جهل وجفاء وسوء قراءة للوحي.

٣. **إساءة تفسيرها**: فكم من جماعات ضلت بسبب التعلُّق بظهور المهدي، وكان هذا منذ القرن الأول؛ فقد كان محمد ابن الحنفية -ابن علي بن أبي طالب- يُنادَى عليه مِن قِبَل بعض الناس بأنه المهدي، وظهر ما لا يمكن حَصْرهم ممَّن ادعوا المهدية إلى زماننا هذا الذي حدثت فيه مأساة الحرم المكي المعروفة؛ بسبب التعلُّق الموهوم بالمهدي.

وكم من جماعات في زماننا هذا تَتبعت أحداث آخر الزمان تتبُّعًا خاطئًا في التوراة والإنجيل المُحَرَّفينِ!! وفي كتب الرهبان الكفرة! وفي بعض أخبار بني إسرائيل الواردة في الكتب المشتهرة بإيراد المكذوبات والموضوعات والأخبار الساقطة وشديدة الضعف.

ومسألة آخر الزمان من الغيب الذي لا يؤخذ إلا من القرآن والسُّنَّة الصحيحة، وقد جمعني ببعضهم مجلسٌ تحسَّرت فيها على ما وصل إليه تفكير هؤلاء مِن عُقْمٍ وضعف.

وقد قرأتُ كُتُبًا صُنِّفت في هذا الباب، عجبتُ مِن تهافُت مَنْطقها وضعف حجتها وسوء إيرادها، وقد وقع مصنِّفو هذه الكتب في خطإٍ فادحٍ يومَ حدَّدوا وقوع الساعة أو ظهور المهدي أو خروج الدجال بالسَّنَة، بل بالشَّهْر، وهذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

والمطلوب أنْ يقرأ المرءُ تاريخَ آخر الزمان؛ بِنِيَّة الاستفادة واستنباط العِبَر والعِظات، وبنِيَّة الاستعداد ليوم المعاد، لا أنْ يقتحم الغيب المجهول بتخرُّصات وظنون وأوهام لا تستند إلى حقائق . . والله الموفِّق.

٦ فوائد لقراءة التاريخ . . من يجهل تاريخه يفقد مستقبله [1]

التاريخ أعظم معلم للبشرية، فيه الحِكم والعبر، فيه التجارب والسير، منه نعرف الصواب فنتبناه ونعرف الخطأ فنتفاداه.

التاريخ هو الأساس الذي تبنى عليه البنيان الشامخة، هو الأصل الذي منه تتفرع الفروع.

بل أن القرآن الكريم نفسه اهتم في ثلثه تقريبا بقصص السابقين من الأمم، بل أن القرآن الكريم نفسه اهتم في ثلثه تقريبا بقصص السابقين من الأمم، فهل تظن أن ثلث القرآن هكذا حكي وسرد بلا فائدة! وإذا كان التاريخ يكتسب كل هذه الأهمية فلماذا تعزف الأمة عن قراءته؟ وما فائدة قراءة تاريخ لزمان ولّى وغبر؟ فلْنُشغل أنفسنا بما نحن فيه فذاك أولى!.

يقول موقع المدونات المغربي الشهير " a m t بوست " إن الحكمة تقول الأمة بلا تاريخ ميزانها صفر بين الأمم، وفي الحقيقة ليست هناك أمة لا تاريخ لها، إذ كيف يُعقل أن يوجد حاضر لا ماضي له، وإنما هناك طمس وتزوير للحقائق، إما لتضليل الحق وإما لأن تاريخهم لا يُشرِّف بأحداثه البشعة، أو أن فترة من الزمن لم تدون.

وكثير من الدول ممن لم يدون تاريخها تخلق أشخاصاً وهميين وأبطالاً أسطوريين من الخيال، وتنفق أموالاً باهظة على مثل تلك المشاريع من إنتاج أفلام وطباعة كتب.

وتساءل: "لماذا تهتم كثيراً بمعرفة آبائك وأجدادك؟ في حين نجد أن الابن غير الشرعي يمقته المجتمع؟ لأن من لا أصل له لا فرع له، ولولا قصر المقام لسقت لك أمثلة وأدلة لتتبيَّن الأمر عن بصيرة.

لماذا لا نقرأ التاريخ؟

هناك عدة أسباب تجعلنا نعزف عن قراءة التاريخ منها:

---

(١)- الخميس، ٠٣ مايو ٢٠١٨

أولاً: ما نقرؤه منذ نعومة أظافرنا في المقررات المدرسية في مادة التاريخ، فغالباً ما تتناول أحداثاً هامشية، وفي الغالب نجدها تتضارب مع الحقيقة، ولا يُراد لنا أن نعرف تاريخنا المجيد، خدمة لمصالح شخصية وأجندات سياسية، فتاريخنا العظيم تعرض لتزوير منقطع النظير، وهنا يأتي دور القارئ الباحث، فالحقيقة لن تأتي إليك على طبق من فضة، بل عليك بالبحث والسبر لتكشف الحقيقة جلية من مصادرها وتزيل التشويش عنها.

ثانياً: الكثير منا يجد أن التاريخ شيء مُمِّل، بأحداث طويلة وكثرة أسماء وشخصيات لا طائل من ورائها.

وهذا نقول له: إن النهر أوله قطرة ماء، والزوبعة تثيرها حبة رمل، فعليك بقراءة الروايات التاريخية والمذكرات الشخصية في البداية، وكذا مشاهدة الأفلام التاريخية، وإن كان كل هذا لا يحمل تاريخاً ولا يكسبك المَلَكة التاريخية، وكثيراً ما يَتِم طمس الحقيقة فيه أو ليّ عنقها، إلا أنه كبداية لا بأس بها لطرد الملل وبث شغف القراءة.

ثالثاً: وهو عامل نفسي يتمثل في ضعف الشخصية وانبهار بالغرب، واتباعهم في ما قل أو جل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلناه، وهذا يزرعه بالأساس في نفوس الشباب العربي الهيام بنجوم السينما والكرة وكل لامع وبارق، وبالتالي خلقنا شيئاً من لا شيء وأساطير من الخيال، في المقابل استصغرنا كل ما هو عربي أو إسلامي وركّناه في زاوية التخلف والرجعية؛ فالانبهار يولد الانصهار فالاندثار.

رابعاً: وهناك طابور رابع، لا يجد في قراءة التاريخ أدنى فائدة؛ إذ تلك أحداث ولَّى زمانها وبليت عظام منتجيها، وهذا نجيب عنه بإذن الله تعالى في فوائد التاريخ، وهو العنصر التالي.

مِن فوائد التاريخ:

يقول الموقع إن للتاريخ فوائد جمَّة لا سبيل لحصرها؛ إذ كل شيء مر عليه زمن بداية من اللحظة التي تقرأ فيها هذه المقالة تاريخ، يقول الموقع إن للتاريخ فوائد جمَّة لا سبيل

لحصرها؛ إذ كل شيء مر عليه زمن بداية من اللحظة التي تقرأ فيها هذه المقالة تاريخ، وكل العلوم لها تاريخ، فأبعاد التاريخ الثلاثة التي هي الزمان والمكان والحدث تشمل كل شيء، ولا يخلو موجود منها؛ وإنما نذكر هنا ما جادت به القريحة بشكل من الإجمال.

أولاً: أن بالانكباب على قراءة التاريخ وسبر حكمه والغوص تحت نواميسه يستطيع اللبيب الفطن توقع المستقبل؛ إذ لا سبيل إلى استشراف ما هو آت إلا عبر دراسة ما فات، وكفى بها من فائدة جليلة، وهذا لا يناقض أبداً علم الغيب، وإنما هذا مبني على دراسة تحليلية تحت قواعد وأرقام وإحصاءات وتجارب سالفة.

ثانياً: الوقوف على التجارب الصحيحة الدارة للمنافع وتبنيها، والنظر في أخطاء الأولين وتفاديها؛ إذ لا فائدة مع إعادة أخطاء سبقت، تُنفق فيها الأموال وتبذل الجهود لنعيد نفس الخطأ، وهذا ينطبق على حياة كل فرد منا وعلى واقعنا المعيش، فخطأ اليوم لا تعده غداً، بل قوّمه وسدده.

ثالثاً: بدراسة التاريخ تعرف الصديق من العدو، وتعلم كيف يفكر خصمك، وما هي أساليب مكره، وكيف يخطط لك؛ إذ إن الإنسان هو نفسه مذ أن خُلق، وإنما التغيير البسيط يأتي في نمط الحياة، وهذا لا يؤثر كثيراً في أفكار الإنسان، وأقصد هنا الأفكار الأساسية كالمعتقدات والثوابت الدينية والفكرية.

رابعاً: يساعد كافة الباحثين والمتخصصين في تتبع مسار تخصصهم وكيفية تطوره وتفرعه، وما الضرورة التي دعت لنشأة ذاك العلم، وهذا يساعد كثيراً في إضافة الجديد لها بشكل أوضح وأدق.

خامساً: يسلط التاريخ الضوء على الحركات الدينية والسياسية والعلاقة الجدلية بينهما، والأهداف التي أدت إلى تلك الحركات وأسبابها وغاياتها.

سادساً: يعطينا التاريخ نماذج متنوعة من القدوات في شتى الميادين وكافة الأصعدة، لتربية أجيال ذات شخصية قوية تعتز بتاريخها وأبطالها لا بالوهم والأساطير، وتعيش الواقع لا الخيال.

الإمام الطبري رحمه الله

وما قيل عنه

ترجمة الإمام الطبري[1]

تمتع الإمام الطبري رحمه الله تعالى بمواهب فطرية متميزة، جبله الله الكريم عليها، وتفضل عليه بها، كما حفلت حياته بمجموعة من الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة المشرفة.

الإمام الطبري اسمه ومولده:

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري رحمه الله تعالى، يُكنى بأبي جعفر، وعُرف بذلك، واتفق المؤرخون على أنه لم يكن له ولد يسمى بجعفر، بل إنه لم يتزوج أصلاً، ولكنه تكنَّى التزامًا بآداب الشرع الحنيف، فقد كان النبي ﷺ يُطلِق الكُنَى على أصحابه[2].

وُلِد سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٩م[3]، وكانت ولادته بآمُل عاصمة إقليم طبرستان[4].

قال الخطيب البغدادي: "استوطن الطبري بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته"[5].

طفولة الإمام الطبري وتربيته:

نشأ الطبري بآمل، وتربى في أحضان والده وغمره برعايته، وتفرس فيه النباهة والذكاء والرغبة في العلم فتولى العناية به ووجَّهه منذ الطفولة إلى حفظ القرآن الكريم، كما هي عادة المسلمين في مناهج التربية الإسلامية، وخاصةً أن والده رأى رؤيا تفاءل بها خيرًا عند تأويلها. فقد رأى أبوه رؤيا في منامه أن ابنه واقف بين يدي الرسول ﷺ ومعه مخلاة مملوءة بالأحجار، وهو يرمي بين يدي رسول الله ﷺ، وقصَّ الأب على مُعَبِّرٍ رؤياه فقال له: "إن ابنك إن كبر نصح في دينه، وذبَّ عن شريعة ربه".

---

(١)- من موقع طريق الإسلام.

(٢)- ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٦٥.

(٣)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٨.

(٤)- السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٥)- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ٥٤٩.

ويظهر أن الوالد أخبر ولده بهذه الرؤيا وقصها عليه عدة مرات؛ فكانت حافزًا له على طلب العلم والجد والاجتهاد فيه والاستزادة من معينه، والانكباب على تحصيله ثم العمل به، والتأليف فيه؛ ليدافع عن الحق والدين[1].

وظهرت على الطبري في طفولته سمات النبوغ الفكري، وبدت عليه مخايل التفتح الحاد والذكاء الخارق والعقل المتقد، والملكات الممتازة، وأدرك والده ذلك فعمل على تنميتها وحرص على الإفادة والاستفادة منها؛ فوجَّهه إلى العلماء ومعاهد الدراسة، وساعده على استغلال كل هذه الطاقات دون أن يشغله بشيء من شئون الحياة ومطالبها، وخصص له المال للإنفاق على العلم والتعلم، وسرعان ما حقق الطبري أحلام والده، وزاد له في آماله وطموحه.

وقد حرص والده على إعانته على طلب العلم منذ صباه، ودفعه إلى تحصيله، فما كاد الصبي الصغير يبلغ السن التي تؤهله للتعليم، حتى قدمه والده إلى علماء آمل، وشاهدته دروب المدينة ذاهبًا آيبًا يتأبط دواته وقرطاسه.

وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه مخايل النبوغ والاجتهاد، حتى قال عن نفسه: "حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا في التاسعة"[2].

(١)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٩. د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٣١.

(٢)- ياقوت الحموي: السابق نفسه، الصفحة نفسها. د/ فؤاد سيزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ١٥٩. د/ محمد الزحيلي: السابق نفسه ص٣٧.

ملامح شخصية الإمام الطبري وأخلاقه:

تمتع الإمام الطبري رحمه الله تعالى بمواهب فطرية متميزة، جبله الله الكريم عليها، وتفضل عليه بها، كما حفلت حياته بمجموعة من الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة المشرفة؛ ومن هذه الصفات:

١. نبوغ الطبري وذكاؤه:

إن كثيرًا من صفات الإنسان تكون هبة من الله جل جلاله، وعطاءً مباركًا من الخالق البارئ، ولا دخل للإنسان فيها، والله يختص برحمته من يشاء، ويفضل بعض الناس على بعض، ويرزق المواهب الخاصة لمن يشاء من عباده. وكان الطبري -رحمه الله- موهوب الغرائز، وقد حباه الله تعالى بذكاء خارق، وعقل متقد، وذهن حاد، وحافظة نادرة، وهذا ما لاحظه فيه والده، فحرص على توجيهه إلى طلب العلم وهو صبي صغير، وخصص له موارد أرضه لينفقها على دراسته وسفره وتفرغه للعلم.

ومما يدل على هذا الذكاء أنه رحمه الله حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وصلى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين[١].

٢. حفظ الطبري:

كان الطبري رحمه الله يتمتع بحافظة نادرة، ويجمع عدة علوم، ويحفظ موضوعاتها وأدلتها وشواهدها، وإن كُتُبه التي وصلتنا لأكبر دليل على ذلك، حتى قال عنه أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن المفلس: "والله إني لأظن أبا جعفر الطبري قد نسي مما حفظ إلى أن مات ما حفظه فلان طول عمره"[٢].

---

(١)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٩. د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٦١، ٦٢.

(٢)- ياقوت الحموي: السابق نفسه ١٨/ ٦٩. د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٦٢.

٣. ورع الطبري وزهده:

وهاتان الصفتان من فضائل الأخلاق، ومن أشد الصفات التي يجب أن يتحلى بها العالم والداعية، والمربِّي والإمام، وكان الطبري رحمه الله على جانبٍ كبير من الورع والزهد والحذر من الحرام، والبُعد عن مواطن الشُّبَه، واجتناب محارم الله تعالى، والخوف منه، والاقتصار في المعيشة على ما يَرِدُهُ من ريع أرضه وبستانه الذي خلَّفه له والده[١].

قال عنه ابن كثير: "وكان من العبادة والزهادة والورع والقيام في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم،... وكان من كبار الصالحين"[٢].

وكان الطبري رحمه الله تعالى زاهدًا في الدنيا، غير مكترث بمتاعها ومفاتنها، وكان يكتفي بقليل القليل أثناء طلبه للعلم، وبما يقوم به أوده، ويمتنع عن قبول عطايا الملوك والحكام والأمراء[٣].

٤. عفة الطبري وإباؤه:

وكان الطبري رحمه الله عفيف اللسان، يحفظه عن كل إيذاء؛ لأن فعل اللسان قد يتجاوز في بعض الأحيان السنان، ولأن جرح السيف قد يُشفى ويبرأ، ولكن هيهات أن يُشفى جرح اللسان.

وكان الطبري متوقفًا عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ولا يؤثرها إلى أن مات، ولما كان يناظر مرة داود بن علي الظاهري في مسألة، فوقف الكلام على داود، فشق ذلك على أصحابه، فقام رجل منهم، وتكلم بكلمة مَضَّة وموجعة لأبي جعفر، فأعرض عنه، ولم يرد عليه، وترفَّع عن جوابه، وقام من المجلس، وصنَّف كتابًا في هذه المسألة والمناظرة[٤].

---

(١)- تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٥.

(٢)- ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٦٦.

(٣)- د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٦٨.

(٤)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٧٨، ٧٩.

وكان الطبري عفيف النفس أكثر من ذلك، فهو مع زهده لا يسأل أحدًا، مهما ضاقت به النوائب، ويعفُّ عن أموال الناس، ويترفع عن العطايا[1].

٥. تواضع الطبري وعفوه:

كان الطبري شديد التواضع لأصحابه وزواره وطلابه، دون أن يتكبر بمكانته، أو يتعالى بعلمه، أو يتعاظم على غيره، فكان يُدعى إلى الدعوة فيمضي إليها، ويُسأل في الوليمة فيجيب إليها[2].

وكان رحمه الله لا يحمل الحقد والضغينة لأحد، وله نفس راضية، يتجاوز عمن أخطأ في حقه، ويعفو عمن أساء إليه[3].

وكان محمد بن داود الظاهري قد اتهم الطبري بالأباطيل، وشنَّع عليه، وأخذ بالرد عليه؛ لأن الطبري ناظر والده، وفنَّد حججه، وردَّ آراءه، فلما التقى الطبري مع محمد بن داود تجاوز عن كل ذلك، وأثنى على علم أبيه، حتى وقف الولد عن تجاوز الحد، وإشاعة التهم على الطبري[4].

ومع كل هذا التواضع، وسماحة النفس، والعفو والصفح، كان الطبري لا يسكت على باطل، ولا يمالئ في حق، ولا يساوم في عقيدة أو مبدأ؛ فكان يقول الحق، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ثابت الجنان، شجاع القلب، جريئًا في إعلان الصواب مهما لحق به من أذى الجهال، ومضايقة الحساد، وتخرصات الحاقدين[5].

٦. شيوخ الإمام الطبري:

---

(١)- د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٧١.

(٢)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٨٩.

(٣)- السابق نفسه ١٨/ ٨٤.

(٤)- السابق نفسه ١٨/ ٨٠. ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٤٦.

(٥)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٨٥، ٨٦. د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٧٦.

من أشهر شيوخ الطبري:

- محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب.
- إسحاق بن أبي إسرائيل.
- أحمد بن منيع البغوي.
- محمد بن حميد الرازي.
- أبو همام الوليد بن شجاع.
- أبو كريب محمد بن العلاء.
- يعقوب بن إبراهيم الدورقي.
- أبو سعيد الأشج.
- عمرو بن علي.
- محمد بن بشار.
- محمد بن المثنى.

وخلق كثير نحوهم من أهل العراق والشام ومصر[1].

٧. تلامذة الإمام الطبري:

من أشهر تلامذته:

- أحمد بن كامل القاضي.
- محمد بن عبد الله الشافعي.
- مخلد بن جعفر[2].
- أحمد بن عبد الله بن الحسين الجُبْني الكبائي[1] .

---

(١)- الخطيب البغدادي: تاريخ بغدد ٢/ ٥٤٨.

(٢)- السابق نفسه، الصفحة نفسها.

- أحمد بن موسى بن العباس التميمي[٢] .
- عبد الله بن أحمد الفرغاني.
- عبد الواحد بن عمر بن محمد أبو طاهر البغدادي البزاز[٣] .
- محمد بن أحمد بن عمر أبو بكر الضرير الرملي[٤] .
- محمد بن محمد بن فيروز[٥]، وخلق كثير غيرهم.

٨. مؤلفات الإمام الطبري:

ترك لنا الطبري ثروة علمية تدل على غزارة علمه، وسعة ثقافته،، ودقته في اختيار العلوم الشرعية والأحكام المتعلقة بها، وكان له قلم سيَّال، ونَفَس طويل، وصبر في البحث والدرس، فكان يعتكف على التصنيف، وكتابة الموسوعات العلمية في صنوف العلوم، مع ما منَّ الله عليه من ذكاء خارق، وعقل راجح متفتح، وجَلَد على تحمل المشاق؛ ومن هذه المؤلفات:

١) ـ جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري.

٢) ـ تاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري.

٣) ـ كتاب ذيل المذيل.

٤) ـ اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، المعروف باختلاف الفقهاء وهو في علم الخلاف.

٥) ـ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو كتاب فقه في المذهب الجريري.

---

(١)- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٧٢.

(٢)- السابق نفسه ١/ ١٣٩، ١٤٠.

(٣)- السابق نفسه ١/ ٤٧٥.

(٤)- السابق نفسه ٢/ ٧٧.

(٥)- السابق نفسه ٢/ ٢٤٧.

٦) ـ الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، وهو في تاريخ الفقه.

٧) ـ بسط القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو في تاريخ الفقه الإسلامي ورجاله وأبوابه.

٨) ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، وسماه القفطي (شرح الآثار) وهو كتاب في الحديث، بقيت منه بقايا طُبعت في أربع مجلدات.

٩) ـ آداب القضاة، وهو في الفقه عن أحكام القضاء وأخبار القضاة.

١٠) ـ أدب النفوس الجيدة والأخلاق الحميدة.

١١) ـ كتاب المسند المجرد، ذكر فيه الطبري حديثه عن الشيوخ، بما قرأه على الناس.

١٢) ـ الرد على ذي الأسفار، وهو ردٌّ على داود بن علي الأصبهاني مؤسِّس المذهب الظاهري.

١٣) ـ كتاب القراءات وتنزيل القرآن، ويوجد منه نسخة خطية في الأزهر.

١٤) ـ صريح السنة، وهي رسالة في عدة أوراق في أصول الدين.

١٥) ـ البصير في معالم الدين. وهو رسالة في أصول الدين، كتبها لأهل طبرستان فيما وقع بينهم من الخلاف في الاسم والمسمى، وذكر مذاهب أهل البدع، والرد عليهم.

١٦) ـ فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ، وهو كتاب في الحديث والتراجم، ولم يتمه الطبري رحمه الله.

١٧) ـ فضائل أبي بكر الصديق وعمر، ولم يتمه.

١٨) ـ فضائل العباس، ولم يتمه.

١٩) ـ كتاب في عبارة الرؤيا في الحديث، ولم يتمه.

٢٠) ـ مختصر مناسك الحج.

٢١) ـ مختصر الفرائض.

٢٢)ـ الرد على ابن عبد الحكم على مالك، في علم الخلاف والفقه المقارن.

٢٣)ـ الموجز في الأصول، ابتدأه برسالة الأخلاق، ولم يتمه.

٢٤)ـ الرمي بالنشاب، أو رمي القوس، وهو كتاب صغير، ويُشك في نسبته إلى الطبري.

٢٥)ـ الرسالة في أصول الفقه. ذكرها الطبري في ثنايا كتبه، ولعلها على شاكلة الرسالة للإمام الشافعي في أصول الاجتهاد والاستنباط.

٢٦)ـ العدد والتنزيل.

٢٧)ـ مسند ابن عباس. ولعله الجزء الخاص من كتاب (تهذيب الآثار)، وطبعت البقية الباقية منه في مجلدين.

٢٨)ـ كتاب المسترشد.

٢٩)ـ اختيار من أقاويل الفقهاء[1].

٩. منهج الإمام الطبري في التفسير:

لقد لخص لنا الأستاذ الفاضل محمد محمود الحلبي - في كلمة الناشر للطبعة الثالثة - منهجَ الطبري باختصار فقال: "وهو تفسير ذو منهج خاص، يذكر الآية أو الآيات من القرآن، ثم يعقبها بذكر أشهر الأقوال التي أُثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة في تفسيرها، ثم يورد بعد ذلك روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلها أو في بعض أجزائها بناءً على خلافٍ في القراءة أو اختلاف في التأويل، ثم يعقِّب على كل ذلك بالترجيح بين الروايات واختيار أولاها بالتقدمة، وأحقها بالإيثار، ثم ينتقل إلى آية أخرى فينهج نفس النهج: عارضًا ثم ناقدًا ثم مرجِّحًا". "وهو إذ ينقد أو يرجِّح يردُّ النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال رجال السند في القوة والضعف، أو إلى مقاييس علمية وفنية: من الاحتكام إلى اللغة التي نزل بها الكتاب، نصوصها وأقوال شعرائها، ومن نقد القراءة

(١)- د/ محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص٥١- ٥٣.

وتوثيقها أو تضعيفها، ومن رجوع إلى ما تقرر بين العلماء من أصول العقائد، أو أصول الأحكام أو غيرهما من ضروب المعارف التي أحاط بها ابن جرير، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره"[1].

١٠. آراء العلماء في الإمام الطبري:

قال عنه ياقوت الحموي: "أبو جعفر الطبري المحدِّث، الفقيه، المقرئ، المؤرِّخ، المعروف، المشهور"[2].

وقال الخطيب البغدادي: "كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات كلها، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها: صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم...، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم"[3].

وقال القفطي: "العالم الكامل، الفقيه، المقرئ، النحوي، اللغوي، الحافظ، الإخباري، جامع العلوم، لم يُرَ في فنونه مثله، وصنف التصانيف الكبار"[4].

وقال عنه محمد بن إسحاق بن خزيمة: "ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير"[5].

وقال ابن كثير: "كان أحد أئمة الإسلام علمًا وعملاً بكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم"[6].

---

(١)- تفسير الطبري ١/ ٤.

(٢)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٠.

(٣)- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ٥٥٠.

(٤)- القفطي: إنباه الرواة ٣/ ٨٩.

(٥)- الذهبي: العبر في خبر من غبر ١/ ٤٦٠.

(٦)- ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٤٦.

وقال الإمام الذهبي: "الإمام الجليل، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة... من كبار أئمة الإسلام المعتمدين"[1].

وقال عنه الذهبي أيضًا: "كان ثقة حافظًا صادقًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، عَلاَّمةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات واللغة، وغير ذلك"[2].

وقال عنه ابن تغري بردي: "وهو أحد أئمة العلم، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، وكان متفننًا في علوم كثيرة، وكان واحد عصره"[3].

١١. آراء العلماء في مؤلفات الطبري:

احتل تفسير الطبري سويداء القلب عند العلماء على مر العصور في القديم والحديث، وحظي بالرعاية والعناية، وأثنى عليه الأئمة والعلماء والمؤرخون والمفسرون، وسطروا الجمل المذهبة حوله، وعلقوا عليه أوسمة الفخار.

قال عنه الإمام النووي: "لم يصنف أحد مثله"[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وتفسير محمد بن جرير الطبري هو من أجلِّ التفاسير وأعظمها قدرًا..."[5].

وقال أيضًا: "وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي"[1].

---

(١)- الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/ ٤٩٨، ٤٩٩.

(٢)- الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠.

(٣)- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ٢٠٥.

(٤)- الإمام النووي: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٧٨.

(٥)- ابن تيمية: مجموع الفتاوى الكبرى ١٣/ ٣٦١.

وقال مؤرِّخ الإسلام الذهبي: "وله كتاب التفسير، لم يصنف أحد مثله"[٢].

وقال عنه القفطي: "وصنف التصانيف الكبار، منها تفسير القرآن الذي لم يُرَ أكبر منه، ولا أكثر فوائد"[٣].

وقال السيوطي في الإتقان: "وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها... فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك"[٤].

وقال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: "فكان جديرًا بالتفسير حين تناوله الطبري بتلك المشاركة الواسعة، وذلك التفنُّن العجيب أن يبلغ به أوجه، وأن يستقر على الصورة الكاملة التي تجلت فيها منهجيته، وبرزت بها خصائصه مسيطرة على كل ما ظهر من بعده من تآليف لا تحصى في التفسير"[٥].

وقال أبو حامد الإسفراييني الفقيه: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصِّل تفسير ابن جرير، لم يكن كثيرًا"[٦].

١٢. وفاة الإمام الطبري:

عاش الطبري راهبًا في محراب العلم والعمل حتى جاءته الوفاة ولا رادَّ لأمر الله.

قال الخطيب: "واجتمع عليه (حال الجنازة) من لا يحصيهم عددًا إلا الله، وصُلِّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهارًا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب"[٧].

---

(١)- السابق نفسه ١٣/ ٣٨٥.

(٢)- الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠.

(٣)- القفطي: إنباه الرواة ٣/ ٨٩.

(٤)- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٩٠.

(٥)- الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: التفسير ورجاله ص٣١.

(٦)- الذهبي: العبر في خبر من غبر ١/ ٤٦٠.

(٧)- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ٥٥٤.

وكان ذلك في يوم ٢٦ من شهر شوال سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م على الأرجح، في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله، ودُفِن في داره الكائنة برحبة يعقوب ببغداد[١].

(١)- ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٠. القفطي: إنباه الرواة ٣/ ٩٠. تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٢. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٦٦.

ثناء العلماء على الإمام الطبري[1]

حَظِي الإمام محمد بن جرير الطبري بثناء العلماء في القديم والحديث، وما نال ذلك إلا بتوفيق الله – سبحانه وتعالى – له، ثم جِدِّه وحرصه على العلم بما هيَّأ الله له بذاته من أسباب النبوغ والذكاء، وما تميز به من الإخلاص لله في الطلب، وبذل الأسباب الممكنة في التحصيل، حتى فاق أقرانَه، بل تميَّز واشتهر على مشايخه، فكان – رحمه الله – من أفراد العلماء في الزمان، ولا تزال تلهج الألسنة بالثناء عليه، والدعاء له، والترحُّم والاستغفار، ومعرفة قدره في الفنون الشرعية، وإمامته فيها.

ومِن أجمع ما قيل في الثناء عليه ما ذكره الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد)، إذ قال:

" محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، كان أحدَ أئمة العلماء، يُحكَمُ بقوله، ويُرجَعُ إلى رأيه؛ لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره؛ فكان حافظًا للكتاب، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسُّنة وطرقها، صحيحِها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في أخبار الأمم وتاريخهم، وله كتاب التفسير (لم يُصنَّف مثله، وكتاب سمَّاه) تهذيب الآثار لم أرَ سواه في معناه، لكنه لم يُتمَّه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حُفِظت عنه".

وأثنى عليه الحافظ الذهبي بعد كلام الخطيب المتقدم، فقال عنه: كان ثقة، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علاَّمةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك.

---

(١)- رابط الموضوع: https://www.alukah.net/culture/0/78006/#ixzz6EmxCZzG4

ولشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ثناء كثير عليه، لو جُمِع لكان في جزء لطيف، وما ذاك إلا لما عرفه من مؤلفاته وتراجمه السؤدد في العلم والحفظ والدين، فقد وصفه بأنه من العلماء الكبار، وعدَّه في عِداد أئمة الإسلام العِظَام؛ كمالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي والليث بن سعد وأمثالهم، في المنهاج (٧ / ١٣، ٢٨٦، ١٧٩).

وقال في المنهاج أيضًا (٦ / ٥٢ - ٥٣ ..." :(وهؤلاء أهل العلم الذين يبحثون الليل والنهار عن العلم، وليس لهم غرض مع أحد؛ بل يرجِّحون قول هذا الصاحب تارة، وقولَ هذا الصاحب تارة، بحسب ما يرونه من أدلة الشرع؛ كسعيد بن المسيب - وذكر طبقته -...، ومَن بعدَهم كابن شهاب الزهري - وذكر طبقته -...، إلى سفيان الثوري، إلى وكيع بن الجراح، ثم الشافعي وأحمد بن حنبل، ومحمد بن جرير الطبري وأبي بكر بن المنذر..."؛ فجعله في آخر العلماء المجتهدين المشهورين بذلك في القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على الناس من أمَّة النبي ﷺ .

وقال فيه ابن حجر الحافظ كلمةً أَجمَلت فضائله، وأنصفته من خصومه : " محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة، مات سنةَ عشر وثلاثمائة، ثقة، صادق، فيه تَشيُّعٌ يسير، وموالاةٌ لا تضر". [1]

و لئلا أطيلَ بذكر ثنائه من أقوال العلماء - وهو كثير جدًّا - أختم بما قدَّمه بترجمته الشيخ الفقيه عبدالله بن حميد لكتابه (تهذيب الآثار) حيث قال...) : فكان من أثر ذلك تأليفُ المؤلَّفات الضخمة العديدة التي حوت على تراث نبيِّنا محمد ﷺ، من هؤلاء الجهابذة الأفذاذ الإمام أبو جعفر محمدُ بن جريرٍ الطبريُّ، فقد أجمع المسلمون على إمامته وجلالة قدره وسَعَة علمه، وألف في ذلك المؤلفات الكثيرة النافعة التي أثنى عليها أئمة العلماء، وذكروها ومؤلِّفَها بما هو أهل...، والإمام ابن جرير أشهر من أن يُذكَر وأَعرَفُ من أن يُنكَر (ثم شرع

(١)- الميزان (٥ / ١٠٠).

في نبذة يسيرة مختصرة عن حياته، ومما قال فيها):... ما زال العلماء في زمانه وبعده يُثْنون عليه ويذكرون فضله وعلمه وزهده وتُقَاه، فقد كان - رحمه الله - عالمًا بتفسير القرآن، والحلال والحرام، وعالمًا بأخبار الناس وأيامهم، وهو من فضلاء الصالحين المتقين، شهد له أهل العلم بالفضل والتقَى؛ فقد كان إمامًا في التفسير والحديث والجرح والتعديل، وعالمًا بالأحكام وأصولها، وله أقوال واختيارات جيدة انفرد بها."[1]

وهذا في الحقيقة تطواف في التاريخ مما أُثنِي به على الإمام ابن جرير، وما ترك من الثناء لا يقاس بما قيل هنا، من ثناء أقرانه كابن خزيمة وعموم تلاميذه، ومترجمو الشافعية يذكرونه في طبقاتهم كابن كثير وابن السبكي، والفرغاني عبدالله، وابن رجب الحنبلي وغيرهم كثير، وهو - رحمه الله - أهل لهذا، وليس بكثير عليه.

(١)- مقدمة الشيخ ابن حميد تلك على اختصارها، إلا أنها حافلة ومركزة عن الإمام ابن جرير وحياته العلمية - رحم الله الجميع.

اتهام الطبري رحمه الله تعالى بالتشيع [1]

الحمد لله أحق حمداً وأوفاه ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خير خلقه ومصطفاه، وعلى آله وصحبه وسلك طريقه ، واتبع سنته ، واهتدى بهداه إلى يوم نلقاه.

أما بعد:

فمن العجائب أن يتهم إمام من أئمة المسلمين الكبار، وشيخ المفسرين على الإطلاق ابن جرير الطبري بالتشيع، فهذا مما يتعزى به العلماء والصالحون من بعده إذا ما اتهم أحدهم بأمر هو منه براءٌ.

وفي هذا المقال سأبيّن حقيقة هذا الاتهام وسببه وبطلانه وأقوال بعض العلماء في عقيدته.

والله المستعان.

أولاً: حقيقة ما اتهم به:

ليس المراد باتهام الطبري- يرحمه الله- بالتشيع مجرد حب علي ﷺ و شيعته و معرفة فضل آل البيت، فهذا جزء من الدين، وهو من عقيدة أهل السنة و الجماعة، و لكن المراد بالاتهام التشيع المرفوض والمذموم الذي يغالي في حب علي ﷺ وآل البيت، ويتطرف في حبهم ويصل إلى الطعن في بقية الصحابة وازدراء مواقفهم وسبهم سراً وعلناً[2]

ثانياً: سبب الاتهام[3]:

يرجع سبب الاتهام - والعلم عند الله- إلى عدة أمور وهي:

١. تصنيفه في فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.

٢. إثباته الأسانيد و الروايات لحديث غدير خم.

---

(١)- كتبه علي بن عبد الرحمن العويشز.

٢ كتاب الإمام الطبري شيخ المفسرين د. محمد الزحيلي (٥٨).

٣ أنظر المصدر السابق (٥٠)، وأراء الطبري الكلامية لطه محمد رمضان (١٩/ ٢٧)، وتحقيق مواقف الصحابة من الفتنة في ضوء روايات الطبري والمحدثين (١/ ١٨٧-٢٠١)، وحقبة من التاريخ لعثمان الخميس (١٨)، والإمام الطبري لعبد الله المصلح (٣٩).

٣. مناظرته مع داود الظاهري الذي نتج عنها أن صنف ابن داود الظاهري واسمه محمد كتاباً في الرد على الطبري ورماه بالعظائم والرفض، كما ذكر ذلك عوام الحنابلة في بغداد.

٤. اشتباه اسمه باسم أحد الروافض وهو محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري.

٥. إكثاره من الرواية عن لوط بن يحيى و يكنى بأبي مخنف وقد روى عنه خمسمائة وسبعاً وثمانين رواية، وهو إخباري تالف لا يوثق به كما قال عنه الذهبي وقد رمي بالرفض والكذب.

ثالثاً: بطلان هذه التهمة:

لاشك أن الإمام الطبري رحمه الله تعالى إمام من أئمة أهل السنة و الجماعة فقد قال عنه الخطيب البغدادي:

(كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رائه لمعرفته و فضله وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره)[١]

وقال مؤرخ الإسلام الحافظ أبو عبد الله الذهبي:

(الإمام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ..... من كبار أئمة الإسلام المعتمدين)[٢]

وقال ابن كثير:

(....بل كان أحد أئمة الإسلام علماً و عملاً بكتاب الله و سنة رسوله)[٣]

---

١ تاريخ بغداد (٢/ ١٦٣).

٢ ميزان الاعتدال (٣/ ٤٩٨) .

٣ البداية و النهاية ١١/ ١٤٦،١٤٥

يتبين من خلال كلام هؤلاء العلماء الجبال أن الطبري رحمه الله من أئمة الإسلام المعتمدين ومن أهل السنة والجماعة وهو بعيد كل البعد عن هذه التهمة.

و أما عن الأمور التي نقمت وشغب بها عليه فيقال فيها ويجاب عنها بما يأتي:

أولاً: تصنيفه في فضائل علي رضي الله عنه .

هذا ليس دليلاً على تشيعه و ذلك أن أهل السنة و الجماعة يقرون بفضله ﷺ وإمامته وأنه رابع الخلفاء الراشدين وله من الفضائل والمناقب الشيء الكثير الذي لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب السنة.

ثم إنه رحمه الله صنف كتاباً من فضائل أبي بكر و عمر رضي الله عنهما و هذا مالا تصنفه الروافض.

ثانياً: تصحيحه لحديث غدير خم وجمعه للروايات والأسانيد فهي من ناحية حديثية بحتة، ولا يلزم من تصحيحه للحديث إن يكون شيعياً رافضياً.

قال ياقوت:

(كان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب خبر غدير خم، وقال: إن علي ابن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان الرسول ﷺ بغدير خم .... وبلغ أبا جعفر ذلك، فابتدأ الكلام في فضائل علي بن أبي طالب؛ وذكر طرق حديث غدير خم).

قال ابن كثير: (رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين)[1]

ثالثاً: أما ما كتبه محمد بن داود الظاهري في الرد على ابن جرير الطبري فهو مجرد دعوه مفتقرة إلى الدليل، ثم إن كلام الأقران يطوى ولا يروى وينبغي أن يتأنى فيه وينظر ويتمهل سيما إذا لم يوافقه غيره فيه.

---

١ مقدمة تاريخ الأمم والملوك (٦٥)

رابعاً: أن ابن جرير الطبري رحمه الله قد وفقه أحد علماء الرافضة باسمه واسم أبيه وكنيته ولقبه ومعاصرته وكثرة تصانيفه.

قال الذهبي رحمه الله:

(أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ، فقال: كان يضع للروافض، كذا قال السليماني، و هذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنى فيه، لا سيما في مثل إمام كبير ، فلعل السليماني أراد الآتي)[1] . ويقصد بالآتي أبو جعفر محمد بن جرير ابن رستم الطبري قال الذهبي عنه:

(رافضي له تواليف، منها كتاب الرواة عن أهل البيت رماه بالرفض عبدالعزيز الكتاني).

قال ابن حجر في لسان الميزان معلقاً على كلام الذهبي:

(ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلا الآتي لبررت، والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أن يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل)[2].

وقد كان ابن رستم هذا يقول بقول الشيعة في مسح الأرجل في الوضوء فنسب خطأً إلى صاحبنا الطبري.

خامساً: أما روايته عن ابن مخنف فقد بين رحمه الله في مقدمة تاريخه موقفه من رواية أبي مخنف وغيره.

فقال رحمه الله: (وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمامه في كل ما أحضرت ذكره مما شرطت أني راسمه فيه، أنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى روايتها فيه .. إلى إن قال:

---

١ ميزان الاعتدال (٣/ ٤٩٩)

٢ لسان الميزان (٥/ ١٠٠)

فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لا يعرف له وجهاً من الصحة، ولامعنىً من الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، و إنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا).[1]

ويضاف إلى هذا أن منهج عدداً من المحدثين الرواية عن بعض المهتمين والجاهلين والضعفاء لعرف حالهم وحال مروياتهم.

رابعاً: أقوال العلماء في عقيدته:

(١) أبو القاسم اللالكائي: [2]

قال رحمه الله: سياق ما روي من المأثور عن السلف في جمل اعتقاد أهل السنة والتمسك بها والوصية بحفظها قرناً بعد قرن ثم ذكر رحمه الله عقيدة الثوري والأوزاعي وابن عينية وابن حنبل وابن المديني وأبي ثور والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والتستري وابن جرير الطبري. ثم ذكر طرفاً من عقيدته التي رواها عنه اللالكائي بالإسناد الصحيح وبقيتها مطبوعة في صريح السنة.

(٢) ابن تيمية: [3]

أشار إلى عقيدة الطبري الشيخ ابن تيمية في قاعدة الاسم والمسمى من مجموع الفتاوى ٦/ ١٨٧ فقال: (...كما ذكره أبو جعفر الطبري في الجزء الذي سماه "صريح السنة" ذكر مذهب أهل السنة في القرآن والرؤية، والإيمان والقدر والصحابة وغير ذلك.

---

١ تاريخ الأمم والملوك (١/ ٨) .

(٢)- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، والتصبير في معالم الدين مقدمة المحقق ٢٩ .

(٣)- مجموع الفتاوى ٦/ ١٨٧ .

وذكر أن مسألة اللفظ ليس لأحد من المتقدمين فيها كلام؛ كما قال لم نجد فيها كلاماً عن صحابي مضى ولا عن تابعي قفا إلا عمن في كلامه الشفاء والغناء، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى أبو عبد الله أحمد بن حنبل فإنه كان يقول: اللفظية جهمية. ويقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع.

وذكر أن القول في الاسم والمسمى من الحماقات المبتدعة التي لا يعرف فيها قول لأحد من الأئمة ....) أ . هـ .

(٣) الذهبي: [١]

ذكره من ضمن السلف الذين يثبتون علو الله عز وجل واستواءه على العرش ونقول قول الطبري بالإسناد: (وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر).

ثم قال وتفسير ابن جرير مشحون بأقوال السلف على الاثبات.

(٤) ابن القيم: [٢]

قال ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية: قول الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقران قال في كتاب صريح السنة ونقل كلامه وعده من جملة السلف الذي يرجع لأقوالهم في مسائل الاعتقاد.

(٥) عبد الله بن عبد العزيز المصلح آل شاكر: [٣]

قال: (الطبري سلفي المعتقد وله مع أهل الزيغ صولات وجولات).

(٦) علي بن عبد العزيز الشبل: [٤]

---

(١)- العلو للعلي الغفار للذهبي، ومختصر العلو للذهبي تحقيق الألباني .

(٢)- اجتماع الجيوش الإسلامية / ١٩٤ .

(٣)- الإمام الطبري لعبد الله المصلح .

(٤)- مقدمة كتاب التبصير في معالم الدين للمحقق علي الشبل.

قال: الإمام محمد بن جرير الطبري من كبار أئمة أهل السنة والجماعة المتبعين منهج وعقيدة السلف الصالح في أنواع توحيد الله سبحانه وبقية أصول الإيمان وما يتبعه من مسائله والصحابة والإمامة.

فهو في الكل على مذهب أهل الحديث، مذهب الطائفية الناجية والفرقة المنصورة، لم يعرف عنه غير هذا وتفسيره مليء بكل ما ذكرت، بل هو مصدر تفسير أهل السنة والجماعة.

(٧) محمد الحمود النجدي: [1]

قال: له كتاب في عقيدة أهل السنة والجماعة أسماه (صريح السنة) أما عقيدته في التفسير فهو إمام متبع، نصر مذهب السلف واحتج له ودافع عنه، ولكنه في صفة الغضب والحياء ذكر أقوال المفسرين دون أن يرجح شيئاً منها.

(١)- القول المختصر المبين في مناهج المفسرين ١٠ .

محنة الإمام الطبري: قصة إمام قتله التعصب [1]

بلغت المحنة أوجها ووصل التعصب إلى ذروته، وظل الحنابلة على حصارهم لبيت الطبري حتى بعد أن بلغهم خبر وفاته، مما دفع أصحاب الطبري لأن يدفنوه في صحن داره برحبة يعقوب ببغداد، ولم يخرج الطبري من حصاره حتى بعد موته، ولكن هذا الحصار والتعصب المقيت لم يمنع الناس أن يأتوا إلى بيته للصلاة عليه حتى إن الناس ظلوا عدة شهور يصلون على قبره ليلاً ونهارًا.

أولاً: التعريف به

الإمام العلم العلامة، المجتهد المطلق، شيخ الإسلام، وإمام المفسرين ورائد مدرسة التفسير بالأثر، وكبير مؤرخي الأمة الإسلامية، وأكبر علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا، صاحب التصانيف البديعة.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، ولد سنة ٢٢٤هـ بمدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان، وقد نذره أبوه لطلب العلم، فلما ترعرع وأتم حفظ القرآن وكان حسن الصوت به ، سمح له أبوه بالسفر لطلب العلم، فطاف البلاد ودخل الشام ومصر وأكثر الترحال من مكان لآخر، ولقي نبلاء الرجال وكبار العلماء، حتى صار من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وتصنيفًا، بل صار مثل البحر الزاخر بالعلوم المختلفة.

---

(١)- أ. شريف عبدالعزيز – ملتقى الخطباء.

ثانياً: مصنفاته

يتربع الإمام ابن جرير الطبري على قمة سلم التصنيف لعلماء الأمة بلا منازع، فهو أكثر علماء الإسلام تصنيفًا، ويعتبر رائد علمي التفسير والتاريخ في الإسلام، وعلى منواله نسج من جاء بعده، ولابن جرير مصنفات كثيرة زاخرة بالفوائد الجمة، أشهرها على الإطلاق كتاب (التفسير المسمى بجامع البيان) الذي لم يصنف مثله، والذي لو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل.

والذي قال عنه أهل العلم: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصّله لم يكن كثيرًا.

وله كتاب (تاريخ الملوك والرسل) من أنفس كتب التاريخ، والذي افتتح به مدرسة المؤرخين المسلمين وظل كل مؤرخي الإسلام يسيرون على نهجه في التأريخ، وله كتب أخرى مثل «لطيف القول»، و«تاريخ الرجال»، و«اختلاف علماء الأمصار»، و«القراءات والتنزيل والعدد»، وله كتاب «تهذيب الآثار» وهو من عجائب كتبه، ولكنه مات قبل تمامه، وله كتاب «المحاضر والسجلات»، و«ترتيب العلماء»، و«الفضائل»، و«الخفيف في الأحكام».

ولابن جرير كتب هامة ونفيسة في باب العقائد مثل كتاب «التبصير» وهو رسالة منه إلى أهل طبرستان يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين على عقيدة السلف الصالح خاصة في باب الصفات، وتفسيره المشهور مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها، لا على النفي والتأويل.

كان له همة نادرة في التأليف وصبر على الدرس والتحصيل والكتابة لا تكاد أن ترى مثله بين علماء الأمة، حتى إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وكان يستخير الله – عز وجل– قبل أن يشرع في تأليف أي مصنف، ولم يكن في زمانه ولا بعده – على ما أظن– من له مثل همته العالية في التحصيل والتأليف، حتى إنه قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ قال: نحو ثلاثين ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه! فقال: إنا لله! ماتت الهمم، فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ.

ثناء أهل العلم عليه:

يعتبر الإمام الطبري من كبار أئمة الإسلام وعلم من أعلام الدين، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من معاصريه، فقد كان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال السلف من الصحابة والتابعين، بصيرًا بأيام الناس وأخبارهم.

قال عنه الذهبي: "كان ثقة، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علاّمة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة"، وقال عنه الإسفراييني الفقيه: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصّل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرًا".

وقال عنه قرينه ورفيقه ابن خزيمة الملقب بإمام الأئمة: "ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير".

وقال لأحد طلبة العلم الذين لم يكتبوا عن ابن جرير بسبب المحنة التي تعرض لها قال له: "ليتك لم تكتب عن كل من كتب عنهم وكتبت عن محمد بن جرير".

محنة الإمام الطبري:

الشهرة والرواج والقبول عند العامة والخاصة من أكثر الأمور التي تجلب على صاحبها المتاعب، وتجعله غرضاً لسهام قلوب ذوي النفوس المريضة بآفات القلوب، مثل الغيرة والحسد والغل إلى آخر هذه الآفات القلبية التي تملأ الصدور بشحنات عالية من الكراهية والبغضاء دون أسباب مقبولة، وصاحبنا الإمام الطبري كان واحداً ممن اجتمعت عليهم كلمة الأمة، مقدماً عند أولي الأمر وأهل العلم وعموم الناس، أضف لذلك خصاله الشخصية من الزهد والورع والترفع عن المناصب والفرار منها بكل سبيل حتى إنه رفض عشرات المرات منصب القضاء في بغداد على ما في المنصب من بريق وسلط، ورفض بعض الشبهات المغرية لقبول العرض من إقامة العدل وإنصاف الناس وهكذا لأنه علم أنها مجرد حجج يُستدرج بها العالم لقبول المناصب، ثم ما يلبث أن يجد ظروف المنصب ومتطلباته تضغط عليه، فيتنازل شيئا فشيئا، فحسم الإمام المسألة من بداياتها ورفض كل المناصب كافة.

بداية المحنة:

كان المذهب الحنبلي هو المذهب السائد بأرض العراق خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، وذلك بفضل صمود الإمام أحمد – رحمه الله – في محنة خلق القرآن وهذا الصمود أعلى من شأن الحنابلة ورفع قدرهم في أعين الناس والعامة، وأقبلوا على تعلم العلم وفقًا للمذهب الحنبلي، حتى أصبح الحنابلة أغلبية بأرض العراق، وكان رأس الحنابلة بالعراق أبا بكر محمد بن الحافظ أبي داود صاحب السنن، ولم يكن الرجل جديراً بهذا المنصب على الرغم من مواهبه وقدراته، ولكنه نال الزعامة الشعبية لدى الحنابلة؛ لشهرة أبيه الحافظ الكبير أبي دواد والذي يعد من تلاميذ الإمام أحمد المقربين له.

كانت بين أبي بكر وبين الإمام ابن جرير الطبري مشاحنات وخلافات، وكلاهما لا ينصف الآخر، ووقع بينهما ما يقع بين الأقران في كل عصر ومكان، ولو وقف الخلاف بين الرجلين عند هذا الحد لكان الأمر هينًا يسيرًا؛ لتوافر أمثال هذه الخلافات في كل عصر، ولكن هذا الخلاف قد أخذ منحنىً جديدًا حتى تحول إلى محنة كبيرة للإمام ابن جرير الطبري.

تحول الخلاف الشخصي بين الرجلين لحملة شعواء على الإمام الطبري زاد من أورها التعصب والجهل ودخول عوام الناس في القضية، وهؤلاء أتباع كل ناعق، ووقود أي فتنة.

ذلك أن الحنابلة حزب أبي بكر بن أبي داود قد دفعهم التعصب المذهبي المقيت لأن يشنعوا على ابن جرير ويشيعوا عليه الأكاذيب والأباطيل الذي هو منها براء، بل هو من أبعد الناس عما اتهموه به؛ ذلك أن الحنابلة قد أشاعوا على الإمام الطبري أنه من الروافض، ورموه

بالتشيع والإمامية، وشعبوا عليه بشدة، وصدقهم كثير ممن لا عقول لهم إلا في آذانهم، وكان سبب هذا الرواج وانتشار هذه الشناعات عدة أمور منها:

١. تأليف الإمام الطبري كتاباً في اختلاف العلماء والمذاهب في الأمصار، وكان كتاباً ضخماً وحافلاً إلا أنه لم يذكر فيه المذهب الحنبلي، حيث كان يرى أن الإمام أحمد معدود من جملة المحدثين وليس من جملة الفقهاء، ولا شك أن هذا الصنيع منه فيه شيء من التحامل على الإمام أحمد، فمذهبه الفقهي معروف ومدون وتلاميذه كانوا يملئون العراق، غير أن الإمام الطبري ربما كان معذوراً بأن المذاهب الأخرى كانت أقدم وأكثر شهرةً ورواجاً في العالم الإسلامي، ومذهب الحنابلة كان قاصراً على العراق فقط، المهم أن الحنابلة وجدوا في هذا الصنيع فرصةً للنيل من الإمام الطبري والتشنيع عليه بكراهية الإمام أحمد، ثم بنوا على تلك المقدمة الفاسدة، نتائج أشنع مفاداها: أنه ما دام الطبري يكره الإمام أحمد، إذاً فالطبري فاسد العقيدة، معتزلي أو شيعي رافضي!! وكانت هذه التهمة في هذا الوقت كفيلة بالإطاحة بأكبر الرموز والعلماء حتى ولو كانوا من طراز الإمام الطبري.

٢. من الأمور التي ساعدت على قبول العامة لفرية تشيع الطبري ورفضه، قيام الإمام الطبري بجمع طرق حديث (غدير خم) وذلك في أربعة أجزاء باهرة تدل على سعة علمه ومروياته، وهو الحديث الشهير "من كنت مولاه، فعلي مولاه..."، وهو الحديث العمدة عند جميع طوائف الشيعة والذين يستدلون به على أحقية علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وبنيه في الخلافة، وهو حديث صحيح لا شك فيه، ولكن

لا دلالة فيه على أحقية علي – رضي الله عنه – في الخلافة، وتأويله يختلف بالكلية عما ذهب إليه الروافض الجهلة، وكان السبب وراء جمع ابن جرير لطرق هذا الحديث؛ هو قيام أبي بكر بن أبي داود وغيره من علماء الحنابلة بتضعيف هذا الحديث، ومن باب الأمانة العلمية وليس من باب الميل للتشيع أو التأثر به قام الإمام الطبري بجمع طرق الحديث، وقد أقر أبو بكر بن أبي داود بعد ذلك بصحة حديث الغدير.

٣. من الأمور التي ساعدت على تثبيت التهمة بالتشيع على الإمام الطبري عند العامة وحواشي الناس وجود عالم من علماء الشيعة الإمامية يحمل نفس الاسم ونفس الكنية وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، وكان من كبار الروافض، وقد صنف كتبًا كثيرة في ضلالات التشيع مثل كتاب (المسترشد في الإمامة) و(الرواة عن أهل البيت)، وقد أدى هذا التشابه العجيب لخلط الناس بين الرجلين، وشتان ما بينهما، ولم يكن هناك وسائل اتصال حديثة تمكن عموم الناس من معرفة الفرق بين الرجلين، والعامة عقولهم في آذانهم، يتلقفون ما يأتي على هواهم دون تمييز وتمحيص. ولقد أحسن الإمام الذهبي صنعًا عندما أورد ترجمة الطبري الرافضي مباشرة خلف ترجمة جبل السنة ابن جرير الطبري، حتى لا يختلط الأمر على الناس، وللتمييز بين الرجلين.

٤. رفض الإمام الطبري لعقيدة "الإقعاد" التي كان يروج لها أبو بكر بن أبي داود، ومفاد هذه العقيدة أن بعض الحنابلة ومنهم أبو بكر يفسرون "المقام المحمود" بإجلاس المولى – جل وعلا – للنبي ﷺ على العرش يوم القيامة. وقد كتب الإمام الطبري

جزءاً بيّن فيه بطلان هذه العقيدة والحديث الذي ورد في شأنها، وكان أبو بكر عدو الطبري نفسه من رواة هذا الحديث، مما زاد من كراهية أبي بكر وحزبه له.

هذه الأمور وغيرها جعلت فصول المحنة تستحكم، وتضيق حلقاتها على الإمام الطبري، فبعد هجمة شرسة من الشناعات والأباطيل والأكاذيب بحق هذا العالم الجليل قام الحنابلة بالتشويش على الطبري في مجالسه، وتنفير الطلبة من مجالسه، ومع ذلك ظل الإمام صابرًا محتسبًا مواظبًا على الدرس لا ينقطع عنه، حتى قام الحنابلة ذات يوم بسببه وشتمه أثناء الدرس، وأقاموه بالقوة من حلقة الدرس ومنعوه من الجلوس للتدريس، وألزموه القعود في بيته.

نقل الطبري دروسه إلى بيته فكان يجتمع مع طلبة العلم في بيته، فأغاظ ذلك الأمر عوام الحنابلة بشدة، فدفعهم التعصب المذهبي المذموم لأبعد دركات الغلو والظلم، حيث قاموا بمحاصرة بيت الطبري ومنعوه من الخروج من بيته، ومنعوا طلاب العلم من الدخول عليه، حتى إن كل طلاب العلم والحديث الذين دخلوا بغداد سنة ٣٠٩هـ لم يجتمعوا به ولم يرووا عنه شيئًا بسبب طغيان جهلة الحنابلة، ومنهم الإمام حسنيك بن علي دخل بغداد ولم يكتب شيئًا عن الطبري، وعندما علم أستاذه ابن خزيمة ذلك قال لتلميذه (حسنيك): "ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنهم وسمعت من أبي جعفر، وبئس ما فعلت الحنابلة بحقه".

ظل الطبري حبيسًا في بيته يعاني من الاضطهاد الشديد، ولا يدخل عليه أحد إلا القليل من خاصته، وكان قد جاوز الخامسة والثمانين وأنهكته السنون، ورحلات طلب العلم في شتى بقاع الأرض، وزادت المحنة من آلامه وأوجاعه، والجهلة والمتعصبون لا يردهم شيء، لا

مكانة علمية ولا كبر سن، ولا مؤلفات ومصنفات عظيمة في التفسير والتاريخ وغيرهما، وظل الجهلة محاصرين لبيت الطبري حتى حان وقت الرحيل في شوال سنة ٣٠٩هـ، وقد ظل الطبري يردد الشهادة قبل موته عدة مرات، ثم مسح يده على وجهه وغمض بصره بيده، وبسطها وقد فارقت روحه الحياة.

وبلغت المحنة أوجها ووصل التعصب إلى ذروته، وظل الحنابلة على حصارهم لبيت الطبري حتى بعد أن بلغهم خبر وفاته، مما دفع أصحاب الطبري لأن يدفنوه في صحن داره برحبة يعقوب ببغداد، ولم يخرج الطبري من حصاره حتى بعد موته، ولكن هذا الحصار والتعصب المقيت لم يمنع الناس أن يأتوا إلى بيته للصلاة عليه حتى إن الناس ظلوا عدة شهور يصلون على قبره ليلاً ونهارًا.

رحل الطبري عن دنيانا الفانية محاصرًا مظلومًا مضطهدًا من الجهلة والمتعصبين، وراح ضحية محنة مقيتة، وإن كان خصومه قد نالوا من دنياه، فإنه ولا شك قد نال من آخرتهم، وقد رفع الله – عز وجل– ذكره بين الناس وقام له سوق الثناء والفضل والدعاء ولم ينفض، في حين باء الجهلة والمتعصبون بالخسران والنكران في الدنيا والآخرة.

أكبر درس من محنة الإمام الطبري:

التعصب هو الذي قتل الأمة: فالتعصب يعتبر العائق الأساسي أمام كل أشكال التقارب بين الأفراد والجماعات والشعوب والمؤسسات وذلك لأنه يكرس أسباب الفرقة ويهدم ما هو قائم من قواعد الاتفاق والوحدة، والتعصب له أوجه كثيرة أبرزها التعصب الديني وهو الأعلى صوتاً والأكثر ظهوراً والأعمق تأثيراً، ومنه التعصب للقبيلة وهو ما كان عليه العرب

في الجاهلية الأولى، ومازالت آثاره قائمة حتى اليوم، ومنها التعصب للعنصر أو اللون أو اللسان أو الوطن أو المنهج الثقافي، ورغم أوجه التعصب الكثيرة إلا أن هناك سمات عامة مشتركة بين المتعصبين بمثابة الميثاق العام للتعصب، ومن أبرز هذه السمات:

١. **العاطفية الشديدة**: فالتعصب له علاقة لغوية بالعصبية للقبيلة والعشيرة والزمرة والصحبة، ويعني التألب مع من يحب ضد من يناوئهم سواء كانوا ظالمين أو مظلومين، وهذا يفيد أن المتعصب لشيء أو ضده يتسم بالعاطفية الشديدة والميل القوي نحو من يتعصب لهم، فهو لا يري إلا الحسنات والإيجابيات ولا يري أبداً السلبيات والسيئات، أي أن المتعصب مصاب بعمى الألوان، فالمتعصب يصم آذانه ويغلق عيونه ويسكر حواسه تجاه سماع الحق ومعرفة الصواب، فهو غارق في أهوائه وعواطفه، وحتى لو استخدم عقله فإن النتاج الفكري لتشغيل عقله يبقى أسيراً لقيود العاطفة وأغلال الهوى.

٢. **العجلة**: فالمتعصب إنسان شديد العجلة، متسرعاً في إصدار أحكامه واتخاذ قراراته، لا يستند في دعاواه لأي مستند شرعي أو عرفي، ولا يعتمد على أدلة ولا براهين.

فالمتعصب مع من يتعصب له على طول الخط، في الحب والكراهية والإقدام والإحجام والصواب والخطأ، لا يسأل عن أدلة ولا براهين كما قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم * * * في النائبات على ما قال برهانا

٣. **الجمود**: فالمتعصب إنسان ورث أفكاراً وأنماطاً وعادات وقرارات ورؤى من الآباء والأسلاف والشيوخ والكبار، ورثها كابراً عن كابر، يراها من المقدسات التي يجب

التسليم بصحتها وحكمتها، ويثق فيها ثقة مطلقة، فإذا تعصب لقومه مثلاً فإنه يحفظ كل مآثر هؤلاء القوم، ويصبحوا في نظره رمزاً للأمانة والصدق والشجاعة وفضائل الأخلاق، ويرفض تماماً أي نقد ورأي مخالف لما توارثه عن قومه، وكذلك الشيوخ كلامهم عند المتعصب يقدم على كلام الله ورسوله ﷺ، بل يؤول كلام الله ورسوله؛ ليوافق كلام شيخه وإمامه حتى لا يقال عنده أخطأ الإمام وأصاب غيره.

وعندما تقرأ ما أورده الحافظ ابن الأثير، والحافظ ابن كثير في خبر محنة الإمام الطبري تجده ملخصاً مختصراً لكل هذه السمات للمتعصب الجاهل.

ذكر ابن الأثير عن الطبري فقال: "وفي هذه السنة – يقصد ٣١٠هـ- توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين، ودفن ليلًا بداره؛ لأن العامة - يعني الحنابلة - اجتمعت ومنعت من دفنه نهارًا وادعوا عليه الرفض، ثم ادعوا عليه الإلحاد، وكان علي بن عيسى – الوزير - يقول: "والله لو سُئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه".

وذكر ابن كثير في ترجمة الطبري، فقال: "ودُفن في داره؛ لأن بعض الرعاع من عوام الحنابلة منعوا من دفنه نهارًا، ونسبوه إلى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالإلحاد، وحاشاه من هذا ومن ذاك أيضًا، بل كان أحد أئمة الإسلام في العلم بكتاب الله وسُنة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن أبي داود، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم ويرميه بالرفض".

وعبارة "تقلدوا ذلك عن أبي بكر بن أبي داود" تختصر قصة التعصب: جهل وتقليد وعاطفة غير راشدة.

ما قيل عن كتاب

(تاريخ الرسل والملوك)

للإمام الطبري

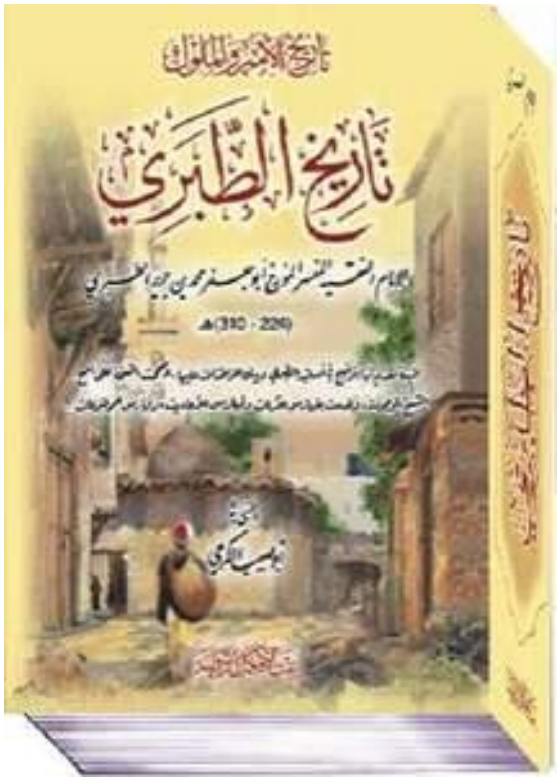

كتاب تاريخ الطبري "تاريخ الرسل والملوك" أو "الأمم والملوك" من أهم كتب المصادر في مجال التاريخ، إذ يعد أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، أقامه مصنفه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل، وهو يورد فيه الصحيح والموضوع معتمداً على ثقافة القارئ للتمييز بينها، أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبي والبلاذري والواقدي، ومهد لمن جاء بعده، كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون ولم يقتصر على تاريخ الإسلام بل أرخ لما قبل الهجرة، بل ابتدأ من القول في ابتداء الخلق.

محمد بن جرير الطبري أبو جعفر - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري، (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣م)، إمام من أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة.

مؤرخ ومُفسر وفقيه مسلم صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ.

له مجموعة من المؤلفات أبرزها (تاريخ الرسل والملوك) المعروف (تاريخ الطبري) و(تفسير الطبري) من كتابه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وغيرها الكثير .

سبب في الاختلاف في التسمية؟ [1]

يصح الوجهان في تسمية الكتاب، وقد صدر لأول مرة في ليدن بعناية دي خويه عام ١٨٩٧/ ١٨٩٨م، تحت عنوان (تاريخ الرسل والملوك) وصدر بالعنوانين، بتحقيق المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم، ففي طبعة دار المعارف جاء اسمه (تاريخ الرسل والملوك) وبذلك سماه ياقوت[٢] وفي نشرة دار سويدان بيروت، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نفسه جاء اسم الكتاب (تاريخ الأمم والملوك) وبذلك سماه الخطيب البغدادي[٣] وحاجي خليفة[٤] حسب ما أفاد محمد أبو الفضل إبراهيم في مقدمته لنشرة دار سويدان.

والأرجح أن الحالة نفسها في مخطوطات الكتاب، ولكني نظرت في قائمة المخطوطات التي اعتمدها فرأيته أهمل ذكر العنوان، فرجعت إلى كتاب د. حسين عاصي (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وكتابه تاريخ الأمم والملوك) فرأيته طرق هذه المشكلة (ص ٧٨) واكتفى بقوله: (ذكر ياقوت أنه وجد اسم الكتاب "تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء" على جزء من كتاب التفسير للطبري بخط الفرغاني، وهو ممن درس على الطبري) ورجعت إلى فؤاد سزكين، فرأيته عرف بمخطوطات الكتاب تحت عنوان (تاريخ الرسل والملوك) والمعروف أن الطبري بنى كتابه فيما يخص التاريخ القديم على تسلسل أخبار الرسل في التوراة، فالأولى أن يكون اسمه (تاريخ الرسل والملوك) وليس تاريخ الأمم والملوك، ولكن الاسم الشائع للكتاب في التاريخ الإسلامي هو (تاريخ الأمم والملوك) .

---

(١)- للباحث زهير ظاظا .

(٢)- في معجم الأدباء (١٨/ ٦٨) .

(٣)- في تاريخ بغداد (٢/ ١٦٣) .

(٤)- في كشف الظنون (ص ٢٩٧) .

قصة الكتاب[1]

أجلُّ كتب التاريخ الإسلامي مكانة عند المسلمين، شيعة وسنة، إلا أن لكل منهما رواية لما يخص الحقبة النبوية وأخبار الصحابة من الكتاب. [2]

وفرق الآلوسي في (روح المعاني) بين الطبريين عند تفسير الآية: (وأرجلكم إلى الكعبين) بأن الأول محمد بن جرير الطبري، والثاني محمد بن جرير بن رستم الشيعي صاحب (الإيضاح للمسترشد) في الإمامة. وهي مكابرة من الآلوسي كما قال رشيد رضا في (المنار). [3]

قال: (قال الخطيب: اجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم إلا الله، وصُلِّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً...وقال غير الخطيب: دُفن ليلاً خوفاً من العامة لأنه كان يتهم بالتشيع).

والمشهور أن نسبته إلى طبرستان، وفيهم من نسبه إلى طبرية في الأردن.

وهو من شيوخ الأصبهاني صاحب (الأغاني) نقل عنه فيه (٣١) خبراً. وانظر في الوراق في (المواعظ والاعتبار) للمقريزي أثناء حديثه عن العزيز بالله ومكتبته دار الحكمة: (وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري: اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز الخزان، فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخطه).

وبالرغم من مكانته وشهرته وعناية المسلمين به لم تصلنا نسخة كاملة من مجلداته، فلفق المستشرقون أماكن النقص فيه من كتب التاريخ الأخرى !.. وطبع لأول مرة في ليدن ١٨٧٦ - ١٩٠١م بعناية (دي جويه) وجماعة من المستشرقين وأصدروه في (١٣) مجلداً، منها مجلدان: فهارس وتعليقات.

---

(١)- موقع الورَّاق.

(٢)- انظر تفصيل ذلك في ترجمة الطبري في كتاب (أعيان الشيعة) للمرحوم محسن الأمين.

(٣)- وانظر ترجمته في معجم الأدباء.

ثم طبع في القاهرة سنة ١٩٠٦م في (١٣) جزءاً، ونشرته دار المعارف عام (١٩٦٠) في (١١) مجلداً بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وله غير ذلك من الطبعات.

منها بعنوان (تاريخ الرسل والملوك) ومنها بعنوان (تاريخ الأمم والملوك) كما تجد تفصيل ذلك في زاوية التعليق على الكتاب.

قال ابن الأثير بعدما ذكر أنه أفرغ في تاريخه كل تراجم الطبري ورواياته التامة: (وإنما اعتمدتُ عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدقاً).

وجدير بالذكر أن المحقق نصر الهوريني (ت ١٢٩١هـ) ذكر في مقدمة نشرته للجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون أنه لم يهتد في مصر إلى نسخة من تاريخ الطبري؟! وعلى تاريخ الطبري مجموعة ذيول، منها ذيل الهمذاني، وينتهي بعام (٤٨٧) وذيل الفرغاني: راوية الطبري، وابنه أبي منصور (ت٣٩٨هـ) وسلسلة ذيول الصابئة.

وكان الطبري قد انتهى بتاريخه إلى سنة (٣٠٢) فذيله ثابت بن سنان إلى سنة (٣٦٠) وأوصله ابن أخته هلال بن المحسن الصابئ إلى سنة (٤٤٨) وأوصله غرس النعمة ابن هلال إلى سنة (٤٧٩).

وكان إبراهيم بن حبيب السقطي قد وضع ذيلا على تاريخ الطبري ذكر ذلك ابن النديم في المقالة السادسة من الفن السابع والتي ترجم فيها لتلاميذ الطبري، ونقل ابن العديم عدة نقولات من كتاب السقطي وسماه (الرديف) وذكره ابن جني في (الفسر) ومن نوادر ما ألف في الطبري كتاب: (التحرير لأخبار ابن جرير) للقفطي، وقد ذكره في ترجمة الطبري في كتابه: (المحمدون من الشعراء) انظره في هذه الموسوعة.

وكتاب (المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه) ليحيى بن علي المنجم نديم المعتضد العباسي، وهو الذي أهداه ابن الجراح كتابه (من اسمه عمرو من الشعراء) انظر التعريف به.

قال القفطي في "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" في ترجمة ثابت بن قرة الصابي ثابت بن سنان بن قرة كَانَ بارعاً فِي الطب عالماً بأصوله فكاكاً للمشكلات وَكَانَ يتولى تدبير المارستان ببغداد فِي وقته وهو خال هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي الكاتب البليغ وعمل ثابت هَذَا.

كتاب التاريخ المشهور فِي الآفاق الَّذِي مَا كتب فِي التاريخ أكثر مما كتب وهو من سنة نيف وتسعين ومائتين والي حنين وفاته في شهور ثلاث وستين وثلاثمائة وعليه ذيل ابن أخته هلال بن المحسن بن إبراهيم ولولاهما لجهل شيء كثير من التاريخ فِي المدتين.

وإذا أردت التاريخ متصلاً جميلاً فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري رحمه الله فإنه من أول العالم والي سنة تسع وثلاثمائة.

ومتى شئت أن تقرن بِهِ كتاب أحمد بن أبي طاهر وولده عبيد الله فنعم مَا تفعل لأنهما قَدْ بالغا فِي ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الأحوال بما لَمْ يأتِ بِهِ الطبري بمفرده وهما فِي الانتهاء قريبا المدة والطبري أزيد منهما قليلاً ثُمَّ يتلو ذَلِكَ كتاب ثابت فإنه يداخل الطبري فِي بعض السنين ويبلغ إِلَى بعض سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فإن قرنت بِهِ كتاب الفرغاني الَّذِي ذيل بِهِ كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله فإن فِي كتاب الفرغاني بسطاً أكثر من كتاب ثابت فِي بعض الأماكن ثُمَّ كتاب هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عَلَيْهِ إِلَى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وَلَمْ يتعرض أحد فِي مدته إِلَى ما تعرض لَهُ من أحكام الأمور والاطلاع عَلَى أسرار الدول وذلك أنه أخذ ذَلِكَ عن جده لأنه كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع وتولى هو الإنشاء أيضاً فاستعان بعلم الأخبار الواردة عَلَى جمعه ثُمَّ يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن إِلَى بعد سنة سبعين وأربعمائة بقليل وقصر فِي آخر الكتاب لمانع منعه الله أعلم بِهِ.

حول كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للإمام الطبري [1]

هل كل الأسانيد والأحاديث الواردة في كتاب الإمام الطبري (تاريخ الأمم والملوك) صحيحة؟ إن كان قليل منها غير صحيح أو أقل من مرتبة الصحيح فكيف أتأكد وأعرف ذلك؟ سبب سؤالي هو أني قرأت في المجلد الأول للطبري فوجدت أسانيد للصحابي الجليل عبدالله بن العباس، رضي الله عنهما، ولكعب الأحبار قد أثارت الشك لدي، بالذات حينما قرأت في فصل خلق الأرض والشمس والقمر، والعين الحمئة. ونترك لسماحتكم الإجابة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله. وبعد:

محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ) أحد الأئمة المشهورين في التفسير والفقه والتاريخ، واشتهر بكتابيه في التفسير والتاريخ، وكتابه في التاريخ من أوسع الكتب التاريخية وأكثرها شمولاً للأحداث والوقائع، ولم يلتزم الصحة فيما يذكره من الروايات والأخبار، ولكنه أوردها مسندة وترك الحكم للقارئ، على منهج وطريقة: العهدة على الرواة، ومن أسند فقد أحال.

قال في مقدمته: فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أُتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا. [2]

وقد وقع في تاريخه كثير من الأخبار الواهية والإسرائيليات المنكرة، والأحاديث الموضوعة والضعيفة، ونجد في تاريخ الطبري الاعتماد على كتب الإخباريين المطعون في عدالتهم

---

(١)- د. محمد القناص - عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم.

(٢)- ينظر: تاريخ الطبري (١/ ٨) .

والمتكلم فيهم، من أمثلة: سيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠هـ) ، وأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ)، وعلي بن محمد المدائني (٢٢٥هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ)، وغيرهم، ويصعب التعامل مع تاريخ الطبري لغير المتخصصين الذين يستطيعون التمييز بين صحيح الأخبار وسقيمها، ولهذا أنصح السائل أن تكون مطالعته في كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير لعنايته بانتقاء الروايات والأخبار ونقد المرويات، حيث ذكر منهجه في مقدمته (١/ ٦)، قال: أما بعد: فهذا كتابٌ أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسَّره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات من خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل، وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل وتزيح الداء عن العليل، ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم وما يقع فيه من الأمور الهائلة، ثم صفة النار ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام، ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ مهما صح نقله أو حسن، وما كان فيه ضعف نبينه، وبالله المستعان وعليه التكلان.

وأُرشد السائل أيضًا إلى العناية بكتب السنة مثل الكتب الستة ومسند أحمد ولا سيما الصحيحين، مع الرجوع إلى شرحيهما مثل فتح الباري للحافظ ابن حجر، وشرح النووي على مسلم، وأما من أراد دراسة أسانيد تاريخ الطبري فعليه الرجوع إلى كتب الرجال لمعرفة مراتبهم ومنزلتهم، وكتب الرجال كثيرة، منها المتقدمة والمتأخرة، ومنها المطولة والمختصرة مثل: التاريخ الكبير للبخاري، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، طبقات ابن سعد، كتاب الثقات لابن حبان، والمجروحين له، الكامل لابن عدي، الضعفاء الكبير للعقيلي، الميزان للذهبي، تهذيب الكمال للمزي، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وغيرها من الكتب التي صنفت في الرجال، ويمكن الاستفادة في البحث عن الرجال من برامج الحاسب مثل: المكتبة الألفية، الموسوعة الذهبية، موسوعة الكتب التسعة، وعلى الدارس للأسانيد التأكد من مواضع الاتصال والانقطاع، وذلك بالرجوع إلى كتب المراسيل مثل: المراسيل لابن أبي حاتم، جامع التحصيل للعلائي، وغيرهما، وعليه أيضًا الرجوع إلى كتب العلل للنظر في المحفوظ من الروايات وغير المحفوظ، وعلى كل حال فدراسة الأسانيد فن له أصوله وقواعده، ويمكن الاستفادة من الكتب التي ألفت في هذا الفن، وهي متوفرة في المكتبات، ويوجد لأساتذة الجامعات مذكرات في هذه المادة حيث إن مادة دراسة الأسانيد تدرس في كليات أصول الدين، وفي برنامج الماجستير والدكتوراه في تخصصات السنة وعلومها. والله أعلم.

وقفة نقدية مع الطبري في كتابه الأشهر " تاريخ الأمم والملوك "

في معبد التاريخ تكثر الحكايات والأقاويل وتتبعثر الحقائق تبعاً للمصالح والأهواء والانتماءات ، وتختلف زاوية النظر إلى درجة التناقض لذلك لا بد أن نتعلم كيف نقرأ التاريخ ونفهمه وكيف نسقطه على حاضرنا، وهو ما يدفعنا للتساؤل كيف كُتب تاريخنا.

تاريخ (الأمم والملوك) كتاب هام للإمام الطبري من كتب التراث يستحق منا وقفة نقدية لنتعرف على شخصية كاتبه وطريقته ومصادره.

ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، في بلدة تسمى "آمل" بطبرستان من بلاد فارس إيران سنة (٢٢٤ هـ - ٨٣٩ م)، ونشأ في أسرة ميسورة الحال، وحرص أبوه على تعليمه وتثقيفه، فحفظ القرآن في السابعة من عمره، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين.

نشأ "ابن جرير الطبري" محبًّا للعلم والمعرفة، وأدرك وهو في سن مبكرة أن بلدته لا تُرضِي طموحه العلمي، فرحل وهو في الثانية عشره من عمره في طلب العلم، فسافر إلى الريّ بإيران الآن، وزار بعض مدنها، والتقى هناك بعلمائها، وتتلمذ على يدهم لم يكتف الطبري بما تعلمه وعرفه في بلاد الري، بل سافر إلى مراكز الثقافة في عصره فانتقل إلى الكوفة التي كانت تمتلئ مساجدها بحلقات العلم في مختلف فنون العلوم الشرعية واللغوية، فدرس القراءات القرآنية وتلقى الحديث النبوي على يد المحدث المعروف أبى كريب محمد بن العلاء الهمدانى الذي قربه إليه، واعتنى به، لما رأى فيه من نبوغ مبكر وحرص على المذاكرة وطلب العلم، وقد أخذ "الطبري" عن شيخه "أبى كريب" ما يقرب من مائة ألف حديث.

ثم رحل الطبري إلى "بغداد" عاصمة الخلافة العباسية ومركز الثقافة العربية آنذاك وانكب على طلب العلم والمعرفة، فدرس الفقه الشافعي، ثم انتقل إلى "الشام"، وبعدها إلى "مصر" سنة (٢٥٣هـ)، وهو في نحو الثلاثين من عمره بعد رحلة طويلة وشاقة في طلب العلم.

وفى "مصر" التقى بعلمائها الكبار وتتلمذ على أيديهم، وقد امتحنه هؤلاء العلماء وأقروا له بالعلم الوافر والثقافة الواسعة وأخيراً استقر في بغداد ليتفرغ للعلم والتدريس.

وكتابه (تاريخ الأمم والملوك)، المعروف باسم "تاريخ الطبري"، يتناول التاريخ منذ بدء الخليقة وهبوط "آدم" إلى الأرض كما يتناول قصص الأنبياء والرسل، والأمم السابقة بالإضافة إلى تناوله لتاريخ الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ حتى سنة (٢٠٣هـ) والقسم الإسلامي من الكتاب مرتب على الحوادث من عام الهجرة حتى سنة ثلاثمائة واثنين، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من الأحداث المذكورة والأيام المشهورة، وترجع قيمة الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ونصوص الشعر والخطب والعهود وقد أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبي والبلاذري، والواقدي، ومهد لمن جاء بعده كالمسعودي، وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون، والكتاب مطبوع في أكثر من عشرة مجلدات كما ترجم إلى عدة لغات أخرى، وهو من أهم المصادر التي يرجع إليها الباحثون وطلبة العلم في معرفة تاريخ الإسلام في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، وقد استفاد من هذا الكتاب كل من كتب في التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا.

سار الإمام الطبري – رحمه الله – في تاريخه على منهج الجمع، وقد أشار إلى هذه المسألة في مقدمته حيث قال: (فما يكن في كتابي من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلِنَا، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا).

أما الطريقة التي سار عليها الطبري في كتابه فهي طريقة المحدثين، والتي تتجلى بأن يذكر الحوادث المروية، ملحقاً إياها بالسند حتى يتصل بصاحبه لا يبدي في ذلك رأياً في معظم الأحيان، وهذه الطريقة التي سلكها في معظم الكتاب وفيما عدا ذلك ينقل من الكتب فيصرح باسم الكتاب أو ينقل عن المؤلفين من غير تعيين الكتاب الذي نقل عنه، وتميز دون غيره بأمور منها:

أنه قد استقى معلوماته من رواة شتى، ومدارس مختلفة، وكان يروي الحادثة الواحدة بطرق كثيرة تعين على المقارنة والموازنة، وإصدار الحكم التاريخي الصائب بعد ذلك.

ومنها: أنه لم يكن يعلق على الحوادث بتصويب أو بتفنيد، وإنما كان يترك هذا لمن يأتي من بعده حتى يرجح في طمأنينة وحرية، ولم يجمع الباحثون على شيء ما أجمعوا على أن كتاب الأمم والملوك هذا الذي حفظ لنا تاريخ الدولة الأموية منذ قيامها في العام الحادي والأربعين حتى سقوطها في العام الثاني والثلاثين بعد المائة.

وفيما يتعلق بشخصيته كان الطبري لطيفًا ودودًا، ظريفًا مع إخوانه، متفقدًا لأحوالهم، معتنيًا بمظهره وشكله، في غاية النظافة وحسن الصورة، وكان يتعامل مع تلاميذه بالرفق واللين

والمحبة، ولا يخص أحدًا من تلامذته بشيء من علمه دون غيره، وكان لا يقبل المناصب خوفا أن تشغله عن العلم من ناحية ولأن من عادة العلماء في ذلك العصر البعد عن السلطان من ناحية أخري، فقد روى المراغي أنه لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله فعرض عليه القضاء فامتنع فعرض عليه المظالم فأبى فعاتبه أصحابه وقالوا لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست وطمعوا في قبوله المظالم فذهبوا إليه ليركب معهم لقبول ذلك فانتهرهم وقال قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه قال فانصرفنا خجلين.

الطبري ومنهجه في تاريخ الرسل والملوك [1]

تاريخ الرسل والملوك، أو تاريخ الأمم والملوك، أو تاريخ الطبري اختصاراً، وهو موسوعة تاريخية كبرى ومن التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم ابتدأ من أول الخليقة وانتهى إلى سنة ٣٠٩هـ، واستقى مادته من كتب الإخباريين المتقدمين عليه، كأبي مخنف والمدائني وهشام الكلبي والواقدي وغيرهم.

وقد اشتمل كتاب الطبري على العديد من مرويات الكتب التالفة لقدماء الإخباريين من الفريقين، وبذا أصبح هذا الكتاب حلقة أساسية لا يمكن تجاوزها وإغفالها، فكان محط عناية العلماء من الفريقين معاً.

وقد طبع هذا الكتاب في ليدن بهولاندا، من سنة ١٨٧٩م إلى سنة ١٩٠١م بعناية المستشرق الهولندي دي غوية، في (١٨) مجلداً، وبعد دخول الطباعة إلى البلاد العربية طبع هذا الكتاب في مصر ثم في لبنان عدة طبعات.

أما مؤلفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ) فقد ولد في آمل بطبرستان، وبعد عام ٢٤٠هـ رحل عن بلاده قاصداً مناهل العلم والفضل في ذلك الزمان كالشام ومصر، ثم استقر في بغداد وبقي فيها إلى آخر أيام حياته[2].

---

(١)- الشيخ عامر الجابري.

(٢)- انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١٤٢٢،١هـ - ٢٠٠٢م، ج٢، ص ٥٤٨وما بعدها.

وقد شارك الطبري في العديد من الفنون والعلوم، إلا أنه نشط وبرز في جانبين:

الجانب الأول: التفسير، حيث أنه يعتبر - في نظر السنة - إمام المفسرين، وتفسيره إمام التفاسير وهو المعروف بـ (جامع البيان في تفسير القرآن) أو (جامع البيان في تأويل القرآن) أو (تفسير الطبري) من باب الاختصار.

الجانب الثاني: التاريخ، وذلك من خلال كتابته لـ (تاريخ الرسل والملوك) الذي نحن بصدده.

والملاحظ أن تاريخ الطبري قد فاق جميع كتب التاريخ العام من حيث الاعتماد عليه من قبل المؤرخين والباحثين في مجال التاريخ، وفي رأينا أن هذا الاعتماد له ما يبرره ويسوغه، فالكتاب يمتاز على غيره من كتب التاريخ العامة بعدة مميزات بعضها يعود إلى شخصية الكاتب وذاتياته، ولكنه في الأخير ينعكس ايجاباً على الكتاب ولو بشكل غير مباشر، والبعض الآخر يرجع إلى نفس الكتاب وبشكل مباشر.

أولاً: مميزات الكاتب:

في تقديرنا أن الطبري يمتاز بثلاثة عناصر قلما تجتمع في مؤرخ غيره:

العنصر الأول: الاستقلال الفكري:

كان الطبري يروج مذهب الشافعي ببغداد لعشر سنين، فقد نقل عنه أنه قال: (أظهرت مذهب الشافعي واقتديت به في بغداد عشر سنين وتلقاه مني ابن بشار الأحول شيخ ابن سريج).

ولذا عده ابن قاضي شهبه في الطبقة الثالثة في كتابه طبقات الشافعية [1] وكذا فعل السبكي في طبقات الشافعية الكبرى[2] .

وقد نسبه البعض إلى التشيع ومولاة أهل البيت عليهم بسبب موقفه إزاء بعض القضايا، كموقفه من حديث غدير خم الذي كان يقول بصحته[3] .

قال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في ميزان الاعتدال في ترجمته للطبري: (فيه تشيع يسير وموالاة لا تضر)[4] .

ولكن الذي يبدو لنا من كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا الحال لم يستمر مع الطبري، ففي الفترة الأخيرة من حياته ترك تقليد الشافعي والترويج لمذهبه، وبدأ يعمل بقناعاته واجتهاداته الخاصة.

قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) في وصفه: (وكان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله)[5] .

---

(١)- أنظر: طبقات الشافعية ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ج١ ، ص ١٠٠.

(٢)- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق د ـ محمود محمد الطناحي، دار هجر ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ج٣ ، ص١٢٠.

(٣)- أنظرلسان الميزان ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، بدون تاريخ ، ج٧ ، ص ٢٥ ، و سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، شعيب الارنؤوط و حسين الاسد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٩ ، ١٤١٣هـ ، ج١٤ ، ص ٢٧٢.

(٤)- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ج٣ ، ص ٤٩٩.

(٥)- تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج٢، ٥٤٨.

وقال الفرغاني: (فلما اتسع أداه بحثه واجتهاده إلى ما اختاره في كتبه ثم ذكر الفرغاني عند عد مصنفاته كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام وهو مذهبه الذي اختاره وجوده واحتج له وهو ثلاثة وثمانون كتاباً) [1] .

وقال ابن خلكان (ت ٦٨١هـ): (... وكان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً، وكان أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طرارا على مذهبه)[2] .

وقال الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) في الأعلام: (وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه)[3] .

وقد عده الشيرازي (ت ٤٦٧هـ) في كتابه طبقات الفقهاء من جملة فقهاء بغداد ومجتهديها[4] .

بناءً على هذا، نستطيع القول: أن الطبري كان يتمتع بدرجة من درجات الاستقلال والتحرر الفكري، مما سينعكس إيجاباً في تعاطيه مع الموروث التاريخي والروائي؛ لأن عقلية المجتهد تختلف عن عقلية المقلد.

العنصر الثاني: الاستقلال السياسي:

ومما يحسب للطبري أيضاً أنه لم يكن من وعاظ السلاطين إن صح التعبير ، وكانت علاقته بالدولة العباسية هي علاقة العالم المتحفظ.

---

(١)- طبقات الشافعية ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٠١ .

(٢)- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧١م ، ج٤ ، ص ١٩١ .

(٣)- الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين ، ط٥ ، ٢٠٠٢م ،ج٦ ، ص ٦٩ .

(٤)- (١٠) طبقات الفقهاء ، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) ، محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ) ، تحقيق احسان عباس ، دار الرائد العربي، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠م ،ص ٩٣ .

فلما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إليه بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء فامتنع، فعرض عليه المظالم فأبى، فعاتبه أصحابه وقالوا: لك في هذا ثواب وتحيى سنة قد درست فطمعوا في قبوله المظالم فباكروه ليركب معهم في قبول ذلك فانتهرهم وقال : كنت أظن اني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه ولامهم ، فانصرفوا من عنده خجلين [1] .

فهذه القضية تكشف بوضوح عن نفسية الطبري وكيفية تعاطيه مع الجهاز الحاكم وقتئذٍ، ولا ينبغي أن يفهم منها أن الطبري كان مقاطعاً لهذا الجهاز، فالقضية ترتبط بالجانب الأخلاقي والسلوكي في شخصية الطبري ولا علاقة لها بالموقف الشرعي من السلطة.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن تفسر جميع الحالات والمواقف المشابهة التي صدرت من الطبري تجاه الدولة، ومنها:

ما يذكر: أن المكتفي قال للعباس بن الحسن إني أريد أن أقف وقفاً يجتمع أقاويل العلماء على صحته ويسلم من الخلاف فاحضر الطبري وأجلس في دار يسمع فيها المكتفي كلامه وخوطب في أمر الوقف فأملي عليهم كتاباً لذلك على ما أراده الخليفة فلما فرغ وعزم على الانصراف أخرجت له جائزة حسنة فأبى أن يقبلها فحرص به صافي الحرمي وابن الحواري لأنهما كان حاضرين المجلس وبينه وبين المكتفي ستر وعاتباه على ردها فلم يكن فيه حيلة فقيل له من وصل إلى الموضع الذي وصلت إليه لم يحسن أن ينصرف إلا بجائزة أو قضاء حاجة، فقال أما قضاء حاجة فأنا أسأل، فقيل له قل ما تشاء: فقال: يتقدم أمير المؤمنين إلى

(١)- أنظر تاريخ دمشق ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ، عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، بيروت ،١٤١٥ هـ ، ٥٢ ، ص ٢٠٠ .

أصحاب الشرط يمنع السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة إلى أن تنقضي الخطبة فتقدم بذلك وعظم في نفوسهم [1] .

وعلى أية حال، فإن هذا السلوك من الطبري قد جنبه – إلى حدٍ ما- ما يسمى اليوم بـ (تأثير السلطة على النص).

العنصر الثالث: الاستقلال المعيشي (الاقتصادي):

وقد أفضى ابتعاد الطبري عن الدولة ورفضه للمناصب والوظائف التي عرضت عليه إلى استقلاله من الناحية المعيشية والاقتصادية أيضاً، فقد كان يعيش على ما يجنيه من التجارة، وعلى ما يرد عليه من حصة من ضيعة يسيرة خلفها له أبوه بطبرستان[2] .

فهذه العناصر الثلاثة تعود إلى ذات الكاتب وشخصيته إلا أنه لا ينبغي أن نبالغ في هذه النتيجة، فالطبري وإن كان مستقلاً فكرياً وسياسياً ومعيشياً، إلا أنه لم يكن خارجاً عن الإطار العام لمدرسة الصحابة، ولم تصل علاقته بالدولة إلى درجة القطيعة كما ألمحنا سابقاً.

نعم هو أكثر استقلالية وتحرراً من غيره، ممن تسنموا المناصب وكانت تصلهم الصلات من الدولة بشكل دائم؛ ولذا فإن تأريخه يرجح على غيره من كتب التاريخ العامة لهذا السبب؛ لأنه سيكون أكثر موضوعية من غيره بسبب من الاستقلال المحدود الذي كان يتمتع به.

ثانياً: مميزات الكتاب:

أما المميزات التي تعود إلى الكتاب بشكل مباشر، فتتمثل بعنصرين هامين:

---

(١)- أنظر: المصدر نفسه، ج٥٢، ص ١٩٤.

(٢)- أنظر: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج٢٧، ص ٣٠٣-٣٠٦.

العنصر الأول: الاهتمام بسند الرواية التاريخية:

حيث أنه يسند رواياته في أغلب الأحيان وينسبها إلى أصحابها على طريقة المحدثين، وقد أفاد الطبري هذه الطريقة من خلال دراسته للحديث، فالطبري كان محدثاً قبل أن يكون مؤرخاً.

فتاريخ الطبري (يتيح للباحث فرصة معرفة سند الرواية، والتأكد من أنها رواية شاهد عيان، كما يتيح للباحث فرصة المقارنة والترجيح لما يغلب فيه من نقل عدة روايات للحادث الواحد)[1] .

العنصر الثاني: نقل وجهات النظر المختلفة:

فالطبري ينقل جميع الروايات المختلفة، ووجهات النظر المتباينة حول الحادث، بغض النظر عن موافقتها للعقل والفكر أو عدم موافقتها، وبغض النظر عن انسجامها مع معتقد الطبري أو عدم ذلك.

وقد لخص الطبري هاتين النقطتين بقوله: (وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس فما يكن في كتابي هذا

(١)- أنصار الحسين ، محمد مهدي شمس الدين ، تحقيق سامي الغريري ، مؤسسة دار الكتاب الاسلامي ، ط٣ ، ١٤٢٩ هـ ، ص ٣٠ .

من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا)[1] .

(١)- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ج١، ص ٧ .

تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري [1]

مفارقات:

من عجيب المفارقات في تاريخنا وتواريخ الأمم الأخرى، وفي موقفنا من تاريخنا ومواقف الأمم الأخرى من تاريخها، أن نكون أغناهن جميعاً في كل ما يبني به تاريخ الأمة من أنباء ونصوص ومراجع وقرائن وإشارات وتحقيقات، ثم نبقى أفقرهن وأقلهن انتفاعاً بهذه الثروة في إقامة معالم تاريخنا على أساسها، بينما الآخرون قد أحدثوا - حتى من الأوهام - مكتبات جديدة لأجيالهم وجماهير قرائهم، حافلة بالطلى الشهي من صفحات ماضيهم، فوثقوا أواصر خلفهم بسلفهم، ويسروا لهم القدوة الحسنة بعظمة العظماء من نوابغهم، بعثوا لهم من ذلك الماضي صوراً حية ترتفع الرؤوس بأمجادها، وتمتلئ القلوب بإجلالها واحترامها، وتطمئن العقول إلى تعليل تصرفاتهم والاعتبار بها ومواصلة السير نحو أهدافها.

مواطن ضعف:

ومواطن الضعف - التي أدت ببعض معاصرينا من حملة أمانات التاريخ العربي والإسلامي إلى أن يكون انتفاعهم بهذه "التركة" ضئيلاً - لا يكاد يأتي عليها الحصر - ومما يتبادر إلى الذهن منها الآن أمران:

---

(١)- محب الدين الخطيب - ٢٧ شوال ١٤٢٨هـ - موقع مداد .

أولهما: أن الذين تثقفوا منا بثقافة أجنبية عنا قد غلب عليهم الوهم بأنهم "غرباء" عن هذا الماضي، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين.

بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصرة له بماضي العروبة والإسلام، لئلا يتهم في زعمه بالعصبية لهما، فوضع نفسه في موضع التهمة بالتحامل عليهما، جرياً وراء بعض المستشرقين في ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة، وفي ميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت، وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه.

ولو أن إخواننا هؤلاء نشأوا على الإيمان بأنهم هم أصحاب هذه "التركة"، وبأن هذا الماضي ماضيهم، وأن جيلنا حلقة في سلسلة هذا الماضي، وأن أحداثه ثروة لنا في القدوة والاعتبار، لنظروا إليه بعين الأم إلى ابنها، إن لم ينظروا إليه بعين الابن إلى أمه، ولا يكون ذلك إلا بتبني هذا التاريخ، والحرمة له، وبث الحياة في أمجاده، والحرص على استجلاء جماله، وإبراز فضائله، وتحري مواطن العظة والاعتبار في أخطائه، وحسن التعليل لذلك بالرفق والإنصاف وكمال التقدير.

على أنه إذا كان هذا حال أهل الصبر منا على البحث والدرس، فما بالك بالآخرين الذين قد تقع أنظار الواحد منهم على بحث فج لمستشرق ناشئ أو منسي، فينتحل ذلك البحث من غير تعب، ويزعمه لقرائنا مبتكراً من عنده، وينقله لنا محرف الأعلام، متضارب الأحكام، مزدوج العي، ملتهب الحماسة في التحامل حتى على الفضائل عندما ينظر إليها - بعينه أو بعين من ترجم عنه - من وراء منظار أسود.

ذلك أحد مواطن الضعف في دراستنا لتاريخ العروبة والإسلام.

أما الموطن الآخر: فهو ما لاحظته على بعض المعاصرين لنا من اشتباه الأدلة التاريخية عليهم، وحيرتهم بين جيدها وأجودها، بل فيهم من لا يميز بين الجيد منها والرديء، مع أن ذلك كان في متناول يده لو سبق له معرفة موازين رواتنا في النقد، أو وقف على مناهجهم في التأليف ومصطلحاتهم في الرواية، ومراميهم في الاستشهاد.

وقد اخترت اليوم من هذه المراجع كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ – ٣١٠هـ) لأتحدث عنه إلى إخواني المشتغلين بالتاريخ، ممن يحاولون الانتفاع به في الاستدلال والنقل، لأني رأيت منهم من يظن أن إيراد الطبري لخبر من الأخبار كاف لتحميل هذا الإمام مسئولية الخبر الذي أورده، واعتباره هو المصدر لهذا الخبر، وأن الأخبار التي يوردها سواء كلها في ميزان الصحة عنده، وأن عزوهم الخبر إلى الطبري ودلالتهم على موضعه من تاريخه تتم بهما مهمتهم من الاستدلال، وتبرأ بذلك ذمتهم من عهدة هذا الخبر، ويبقى الطبري هو المتحمل لمسئولية ما يترتب على ذلك في الحكم على أحداث التاريخ وعلى أقدار رجاله وتصرفاتهم.

إن ظنهم هذا لا يغني من الحق شيئاً، وإن الطبري ليس هو صاحب الأخبار التي يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم، وهؤلاء متفاوتون في الأقدار، وأخبارهم ليست سواء في قيمها العلمية، ولا يتم اعتبار الطبري مرجعاً في التاريخ إلا بإكمال المهمة التي بدأ بها، وهي تقدير أخباره بأقدار أصحابها، ففيها ما يعد من سلسلة الذهب، وفيها ما لا تزيد

قيمته على قيمة الخزف، ولكل ذلك نقاده وصيارفته وتجاره، وهم يعرفون أقدار هذه الأخبار عند التعريف بأقدار أهلها، وقديماً قيل: وما آفة الأخبار إلا رواتها.

أنَّى لك هذا؟

إن كل خبر في تاريخ الطبري، بل كل نص يتناقله أهل العلم في أجيال الإسلام، له عند أهله قيمه رفيعة أو وضيعة، على قدر شرفه أو خسته بالرواة الذين ينتسب إليهم ذلك الخبر أو ذلك النص.

فشرف الخبر في التراث الإسلامي تبع لصدق راويه ومنزلته من الأمانة والعدالة والتثبت، لذلك امتازت كتب سلفنا الأول بتسمية الرجل المسئول عن أي حديث نبوي يوردونه فيها، وبيان المصدر الذي جاءوا منه بأي خبر تحدثوا به إلى الناس، ولو لم يسموا الرجل المسئول عن الحديث النبوي عند إيراده، ولو لم يبينوا المصدر الذي حصلوا منه على أي خبر يودون ذيوعه بين الناس، لطالبهم بذلك علماء الثقافة الإسلامية بأشد من مطالبة المحاكم من يدعي ملكية العقار أو الحقل بما يثبت ملكيته له ومن أين صار ذلك إليه؟

وإذا كان مبدأ "أنى لك هذا" مما سنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في مشروعية امتلاك الأموال، فإن أبناء الجيل الذي منه عمر بن الخطاب ﷺ هم الذين سنوا للناس بعدهم وجوب بيان مصادر العلم، كما سنوا لهم وجوب بيان مصادر المال، والعلم أثمن عندهم من المال وأشرف، وأنفع منه وأبقى.

نحن نعتبر تاريخ الطبري الآن من أقدم مصادرنا، وكان تاريخ الطبري في النصف الثاني من القرن الثالث (أي قبل أحد عشر قرناً) يعد من مصادر التاريخ الإسلامي الحديثة بالنسبة إلى المصنفات التي دونت قبله بثلاثة بطون، بل بأربعة.

ولعل أقدمها مغازي مؤرخ المدينة موسى بن عقبة الأسدي المتوفى سنة ١٤٠هـ ، وهو الذي يقول فيه الإمام مالك: "عليكم بمغازي ابن عقبة فإنه ثقة، وهي أصح المغازي" وابن عقبة من تلاميذ عروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص الليثي، ومن طبقة تلاميذه العراقيين سيف بن عمر التميمي الكوفي المتوفى بعد سنة ١٧٠هـ، وله في سنن الترمذي حديث واحد، والطبري يروى عنه بواسطتين، أي عن شيوخه وهم عن شيوخهم الذين كانوا تلاميذ لسيف.

ومن طبقة تلاميذ موسى ابن عقبة مؤرخ الشام أبو إسحاق الفزاري الحافظ المتوفى سنة ١٨٦هـ، وهو حفيد أسماء بن خارجة الفزاري وكان له كتاب في التاريخ أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في "مقدمة أصول التفسير"، بعد أن قال: "إن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم.

ولهذا أعظمَ الناسُ كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك، وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار".

ويأتي بعد تلاميذ موسى بن عقبة طبقة يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد ابن العاص الأموي المتوفى سنة ١٩٤هـ، ومن مؤرخي الشام الوليد بن مسلم أبو العناس الدمشقي مولى

الأمويين المتوفى سنة ١٩٥هـ، ومحمد بن عمر الوافدي المدني قاضي العراق المتوفى سنة ٢٠٧هـ، ثم كاتبه المؤرخ الحافظ الثقة محمد بن سعد بن منيع البصري (١٦٨هـ - ٢٣٠هـ).

ومن هذا الجو العلمي استمد أبو جعفر الطبري هديته الكبرى إلى الأمم الإسلامية بما سجله وخلده من جهود شيوخه وشيوخ شيوخه ومن سبقهم إلى زمن التابعين والصحابة، فلم يترك مهماً من أخبار سلف الأمة مما أثر عن الأئمة الذين سمينا بعضهم إلا وقد دون طرفاً منه، ناسباً كل خبر إلى صاحبه وإلى من يرويه عنهم صاحب ذلك الخبر من شيوخه وأسلافهم.

الأخبار الضعيفة عند الطبري:

لم يقتصر الطبري على المصادر التي أشرت إلى بعضها، بل أراد أن يقف قارئه على مختلف وجهات النظر، فأخذ عن مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها، إلا أنها تفيد عند معارضتها بالأخبار القوية، وقد تكمل بعض ما فيها من نقص، كما صنع بنقله كثيراً من أخبار أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي، الذي قال فيه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال: "اخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره" وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق، صاحب أخبارهم. مات قبل السبعين ومائة ".

فقد نقل الطبري من أخباره في مئات المواضع، ولو أن الذين ينقلون عن الطبري ويقفون عنده، استقوا أخبار من لوط بن يحيى هذا واكتفوا بعزوها إلى الطبري لظلموا الطبري بذلك، وهو لا ذنب له بعد أن بين لقارئه مصادر أخباره، وعليهم أن يعرفوا نزعات أصحاب هذه المصادر ويزنوها بالموازين العادلة اللائقة بهم وبها.

إن مثل الطبري ومن في طبقته من العلماء الثقات المتثبتين - في إيرادهم الأخبار الضعيفة- كمثل رجال النيابة الآن إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه، اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره.

وهكذا الطبري وكبار حملة الأخبار من سلفنا كانوا لا يفرطون في خبر مهما علموا من ضعف ناقله خشية أن يفوتهم بإهماله شيء من العلم ولو من بعض النواحي.

إلا أنهم يوردون كل خبر معزواً إلى راويه ليعرف القارئ قوة الخبر من كون رواته ثقات أو ضعفه من كون رواته لا يوثق بهم، وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة، ووضعوا بين أيدي القراء كل ما وصلت إليه أيديهم، قال الحافظ ابن حجر في ترجمة الطبراني من لسان الميزان: "إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون في روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد، لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته، وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده".

ومن فوائد إيراد الحادث الواحد بأخبار من طرق شتى وإن كانت ضعيفة قول شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: "إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول (أي بالقدر المشترك في أصل الخبر) لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين (أي نزعاتهم والجهة التي يحتمل أن يتعصب لها بعضهم) وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول، والسيئ الحفظ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل

(١)- مقدمة تفسير القرآن (ص ٣٠ - ٣١).

هذه الأحاديث، ويقولون: إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره. قال أحمد: "قد اكتب حديث الرجل لأعتبره".

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن اتساع صدور أئمة السنة – من أمثال أبي جعفر الطبري – لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم، دليل على حريتهم، وأمانتهم، ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الباب، واثقين من أن القارئ الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبي مخنف موضع تهمة – هو ورواته – فيما يتصل بكل ما هم متعصبون له، لأن التعصب يبعد صاحبه عن الحق.

أما سعة الصدر في إيراد أخبار المخالفين فهي دليل على عكس ذلك، وعلى القارئ الحصيف أن يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، وأن يستخلص الحق عند ما يكون موزعاً أو معقداً.

الانتفاع بأخبار الطبري:

إنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل، فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد في الأكثر في مثل تذكرة الحفاظ للذهبي، وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد في خلاصة تهذيب الكمال للصفي الخزرجي وتقريب التهذيب وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر، والذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر في لسان الميزان، وفي طبقات ابن سعد وتاريخ بغداد للخطيب وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير، وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة

للراوي ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف، ولا نعرف أمة عني مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها كما عني بذلك علماء المسلمين.

وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي، أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ولا يتعرفون إلى رواتها، ويكتفون بأن يشيروا في ذلك الخبر إلى أن الطبري رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ويظنون أن مهمتهم انتهت بذلك، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألوف الأخبار، ولو أنهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث، وأنسوا بكتب الجرح والتعديل، واهتموا برواة كل خبر كاهتمامهم بذلك الخبر لاستطاعوا أن يعيشوا في جو التاريخ الإسلامي، ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وسمينها ، ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها.

وبعد فإن تركة سلف هذه الأمة - في كل ضرب من ضروب المعرفة - من أنفس ما ورثت عن أسلافها، وقد كانت لعلمائنا الأقدمين مشاركة في علوم كثيرة، فجاءت مؤلفاتهم مرتبطاً بعضها ببعض ومكملاً بعضها لبعض.

والذي ألفوه في التاريخ واعتمدوا فيه على الرواية، مبالغة منهم في أداء الأمانة كاملة وافية، لا يجوز لمن ينقله عنهم أن يقصر في عرض تلك الأخبار على قواعد علم الرواية وعلى المعاجم المؤلفة في تراجم الرواة، وإن لم يفعل أخطأ الطريق، وكان عمله خارجاً عن مناهج العلماء.

تمت

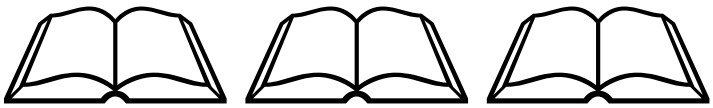

انتهيت من جمع وترتيب هذه الحلقات

في يوم الاثنين

٧ / ٧ / ١٤٤١هـ

Eisa850@hotmail.com

تويتر : Eisa850

جميع الحقوق محفوظة